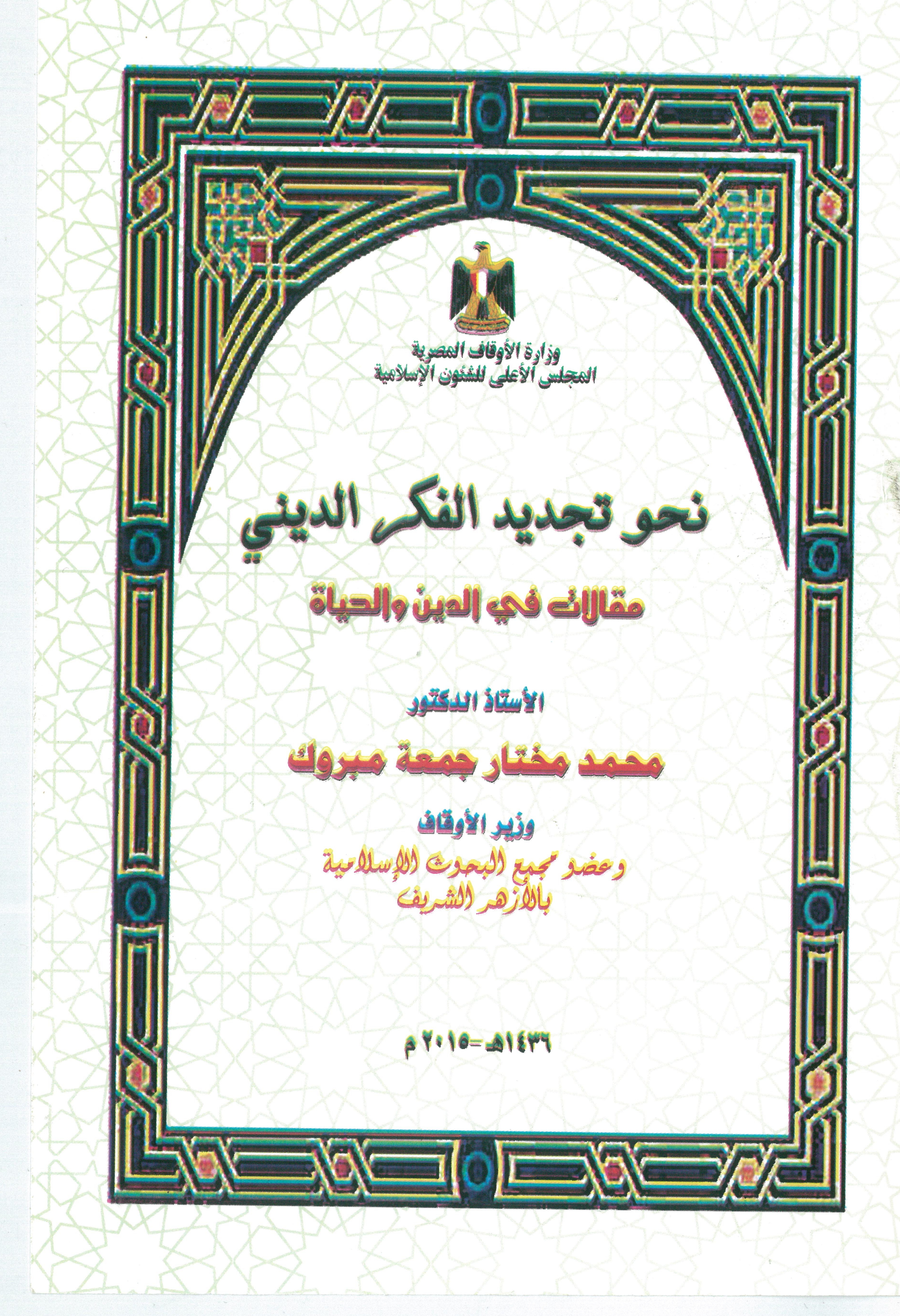


وزارة الأوقاف المصرية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

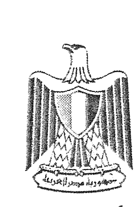
نحو تجديد الفكر الديني

مقالات في الدين والحياة

الأستاذ الدكتور
محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م





وزارة الأوقاف المصرية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

نحو تجديد الفكر الديني

مقالات في الدين والحياة

الأستاذ الدكتور

محمد مختار جمعة مبروك

وزير الأوقاف

وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

" إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ "

(هود : ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبـعد :

فالإسلام دين الحياة ، دين الحضارة والرقي ، سبيله البناء لا الهدم ، والعمل لا الكسل ، هو دين مكارم الأخلاق بكل ما تعنيه الكلمة من معان تتجلى عظمته في أسمى معانيها في جوانبه الأخلاقية ، فهو دين الرحمة ، والعدل ، والصدق ، والأمانة ، والعفاف ، والوفاء ، وكل القيم الإنسانية النبيلة ، وقد لخص النبي (صلى الله عليه وسلم) الهدف الأسمى لرسالته ، فقال (عليه الصلاة والسلام) : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ، ولما سُئل (صلى الله عليه وسلم) عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال عليه الصلاة والسلام : "تقوى الله وحسن الخلق" (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا " (سنن الترمذي) .

وتتجلى عظمة الإسلام أيضا في إنصافه الآخر والمختلف ، وإيمانه بالتنوع الحضاري والثقافي ، حيث يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز " وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ " (هود: ١١٨-١١٩) .

وتعد وثيقة المدينة أفضل أنموذج في تاريخ البشرية لترسيخ فقه التعايش السلمي المشترك بين الأديان والأجناس والأعراق والقبائل ، بما حملته من روح التسامح وإنصاف الآخر ، وحريته في المعتقد ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ " (البقرة: ٢٥٦) .

فقد نصّت هذه الوثيقة على أن يهود بني عوف ، ويهود بني النجار ، ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة ، مع المؤمنين أمة ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وأن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم ، وأن بينهم النصر على من دَهَمَ يثرب ، وأن من خرج منهم فهو آمن ، ومن قعد بالمدينة فهو آمن ، إلا من ظلم أو أثم ، وما اختلف فيه أهل هذه الصحيفة فمرده إلى الله (عز وجل) وإلى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأنّ الله (عزّ وجل) جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

فأي إنسانية ، وأي حضارة ، وأي تسامح ، وأي رقي ، وأي تعايش سلمي ، أو تقدير لمفاهيم الإنسانية يمكن أن يرقى إلى هذا التسامح والرقي في التعامل مع الآخر والمختلف .

غير أن واقع الجماعات المنتسبة ظلمًا إلى الإسلام يعكس واقعا مّرًا ، فنرى القتل وسفك الدماء ، والتدمير والتخريب ، الذي يرتكب باسم الإسلام وتحت راية القرآن ، والإسلام والقرآن من كل ذلك براء ، كما نرى تخلفًا عن مصاف الأمم المتقدمة في العمل والإنتاج على عكس ما يأمرنا به ديننا الحنيف ، حيث يقول الحق سبحانه : " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (الملك : ١٥) ، وقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إذا قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةً ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا ، فَلْيَغْرِسْهَا " (رواه أحمد).

كما نجد انحرافًا واضحًا لدى بعض المنتسبين إلى الإسلام في مجال القيم والأخلاق ، فبينما يأمرنا الإسلام بالصدق ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، نجد واقع المسلمين غير ذلك ، مما يتطلب جهدًا كبيرًا لتصحيح هذه الأخطاء ، وإزالة التشوهات والنتوءات التي لحقت بالوجه الحضاري السمح لديننا الحنيف .

ومما لا شك فيه أن الإقدام على التجديد في القضايا الفقهية ، والنظر في المستجدات العصرية ، وفي بعض القضايا

القابلة للاجتهاد ، يحتاج إلى رؤية ودراية وفهم عميق وإخلاص النيّة لله (عز وجل) بما يُعين على حسن الفهم وتحمل النقد والسهام اللاذعة ، تلك السهام التي يوجهها من أصيبوا بالجمود وانسداد الأفق فكريًا وثقافيًا ، وأقسموا جهد أيمانهم أن الأمة لم ولن تلد مجتهدًا بعد ، وأنها عقمت عقمًا لا براء منه ، متناسين أو متجاهلين أن الله (عز وجل) لم يخص بالعلم ولا بالفقه قومًا دون قوم ، أو زمانًا دون زمان ، وأن الخير في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى يوم القيامة .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف وعضو مجمع البحوث الإسلامية
ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

شجاعة التجديد
وعقـــلانيـــة النـقـــد

مما لا شك فيه أن الإقدام على التجديد في القضايا الفقهية ، والنظر في المستجدات العصرية ، وفي بعض القضايا القابلة للاجتهاد ، يحتاج إلى رؤية ودراية وفهم عميق وشجاعة وجرأة محسوبة ، وحسن تقدير للأمور في آن واحد .

كما أنه يحتاج من صاحبه إلى إخلاص النيّة لله بما يعينه على حسن الفهم وعلى تحمل النقد والسهام اللاذعة ، ممن أغلقوا باب الاجتهاد ، وأقسموا جهد أيمانهم أن الأمة لم ولن تلد مجتهدًا بعد ، وأنها عقمت عقمًا لا براء منه ، متناسين أو متجاهلين أن الله (عز وجل) لم يخص بالعلم ولا بالفقه قومًا دون قوم ، أو زمانًا دون زمان ، وأن الخير في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى يوم القيامة .

ولكي نقطع الطريق على أي مزايدات ونحن مازلنا نتحسس خطواتنا الأولى لدراسة بعض القضايا والمستجدات؛ فإنني أُؤكد على الثوابت والأمور التالية :

١ – أن ما ثبت بدليل قطعي الثبوت والدلالة ، وما أجمعت عليه الأمة وصار معلومًا من الدين بالضرورة كأصول العقائد وفرائض الإسلام من وجوب الصلاة ، والصيام ، والزكاة وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، كل ذلك لا مجال

للخلاف فيه ، فهي أمور توقيفية لا تتغير بتغيّر الزمان ولا المكان و الأحوال ، فمجال الاجتهاد هو كل حكم شرعي ليس فيه دليل قطعي ، يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه المستصفى: ووجوب الصلوات الخمس والزكوات وما اتفقت عليه الأمة من جليات الشرع فيه أدلة قطعية يأثم فيها المخالف ، فليس ذلك محل الاجتهاد.

٢- أننا ننظر بكل التقدير والاحترام لآراء الأئمة المجتهدين: الإمام أبي حنيفة ، والإمام مالك ، والإمام الشافعي ، والإمام أحمد ، ومن كان على شاكلتهم من العلماء والفقهاء ، ونرى أنهم جميعًا أهل علم وفضل، بذل كل منهم وسعه في الاجتهاد والاستنباط ، وتلقت الأمة مذاهبهم بالرضا والقبول.

٣- نؤمن أيضًا أن بعض الفتاوى ناسبت عصرها وزمانها ، أو مكانها ، أو أحوال المستفتين ، وأن ما كان راجحًا في عصر وفق ما اقتضته المصلحة في ذلك العصر قد يكون مرجوحًا في عصر آخر إذا تغير وجه المصلحة فيه ، وأن المُفْتَى به في عصر معين ؛ وفي بيئة معينة ، وفي ظل ظروف معينة ، قد يصبح غيره أولى منه في الإفتاء به إذا تغيّر العصر ، أو تغيّرت البيئة ، أو تغيّرت الظروف ، ما دام ذلك كله في ضوء الدليل الشرعي المعتبر، والمقاصد العامة للشريعة .

٤- أننا نؤمن بالرأي والرأي الآخر ، وبإمكانية تعدد الصواب في بعض القضايا الخلافيّة ، في ضوء تعدد ظروف الفتوى وملابساتها ومقدماتها ، وإذا كان بعض سلفنا الصالح قد قال : رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب ، فإننا نذهب أبعد من ذلك فنقول : إن كلا الرأيين قد يكونان على صواب ، غير أن أحدهما راجح والآخر مرجوح ، فنأخذ بما نراه راجحًا مع عدم تخطئتنا لما نراه مرجوحًا ، ما دام صاحبه أهلا للاجتهاد ، ولرأيه حظ من النظر والدليل الشرعي المعتبر ، فالأقوال الراجحة ليست معصومة ، والأقوال المرجوحة ليست مهدرة ولا مهدومة .

٥- إن تسارع وتيرة الحياة العصرية في شتى الجوانب العلمية والاقتصادية والتكنولوجية ، إضافة إلى التقلبات والتكتلات والتحالفات والمتغيّرات السياسية ، كل ذلك يحتم على العلماء والفقهاء إعادة النظر في ضوء كل هذه المتغيّرات ، ويعلم الجميع أن الإقدام على هذا الأمر ليس سهلا ولا يسيرًا ، ويحتاج إلى جهود ضخمة من الأفراد والمؤسسات ، غير أننا في النهاية لابد أن ننطلق إلى الأمام ، وأن نأخذ زمام المبادرة للخروج من دائرة الجمود .

٦- أننا نؤمّل ألا يسلك العقلاء مسلك العامة في النقد العاطفي ، أو النقد الانفعالي ، أو تجاوز الموضوعية بالتسرع.

في الأحكام قبل القراءة الوافية المتأنية لما يراد الحكم أو التعليق عليه ، وأن نقدم المصلحة الشرعية والوطنية على أي اعتبارات أخرى ، وساعتئذ فلا حرج في النقد الموضوعي ، ولو ردّنا الحق عبيدًا لرددنا إليه صاغرين .

* * *

العقلية العربية تتنازعها تيارات متعددة ، أبرزها تياران متناقضان أحدهما ينزع إلى الماضي بكل مقوماته سواء ما صح منه أم لم يصح .

ويعتبر كل ما فيه مقدسًا حتى لو كان اجتهادًا بشريًا ناسب زمانه ومكانه وبيئته ، وهذه النظرة لا تقف عند حدود الفكر الديني ، إنما تتجاوزه إلى الفكر العام في الصراع بين القديم والحديث والعصبية لأحدهما على حساب الآخر ، ويروى أن رجلاً أنشد الأصمعَيّ قوله :

هل إلـى نظـرةٍ إليـكِ سبيـــل

فيُروى الصَّدَى ويشفى الغليــل

إن ما قـلَّ منـك يكثُـرُ عنـدي

وكثيـرٌ ممـا تُحِـبُّ القليــل

فقال الأصمعيُّ : إن هذا لهو الديباج الخسرواني أي الشعر الجيد الذي يمتدح ويشاد به ، ثم استرسل الأصمعي : لمن تنشدني ، فقال الشاعر : إنهما من شعره أنشدهما لليلته ، وهنا غيّر الأصمعي رأيه على الفور ، قائلا : إن أثر التكلف عليهما لبيّن ، وماذاك إلا لعصبيته للقديم دون سواه بغض النظر عن الجودة وعدمها.

وفي المقابل هناك من يرى أن الله عز وجل لم يخص بالعلم ولا بالشعر ولا بالنثر ولا بالبلاغة ولا بالفكر قوما دون

قوم أو زمانا دون زمان ، والعبرة بالإجادة بغض النظر عن القدم أو الحداثة ، وإن كان الأمر في الفكر الديني يحتاج إلى رؤية أعمق وأناة أشد ، لأن ما ثبت بدليل قطعي الثبوت قطعي الدلالة وأجمع أهل العلم والفقه على قطعية ثبوته ودلالته هو موضع تقدير الأمة ولا مجال للخوض فيه ، مع التأكيد على أن صحيح العقل لا يمكن أن يتناقض مع صحيح النقل .

على أن الخطاب الديني تكتنفه ثلاث معضلات كبرى: الأولى: هي معضلة الجمود ، والثانية : معضلة الانفلات والتسيب ومحاولة السطو على الثوابت ، والثالثة : هي الخوف من التجديد أو التردد فيه ، لأن من جدد فقد استهدف وصار غرضًا للسهام والنبال ، مع تأكيدي الدائم على ضرورة التجديد في إطار الحفاظ على الثوابت الشرعية من جهة ومراعاة طبيعة الزمان والمكان والأحوال من جهة أخرى ، وعدم فرض أمور ناسبت زمانها ومكانها وعصرها وبيئتها فيما يقبل الاجتهاد والرأي والرأى الآخر على سائر الأزمنة والأمكنة والأحوال ، وهو ما يعد عكس الفطرة الإنسانية والفهم الصحيح للإسلام.

ومن هنا نؤكد على أهمية ثقافة التفكير في سائر جوانب الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية ، والإدارية، والخروج من دائرة القوالب الجاهزة والأنماط الجامدة إلى رؤية تتسم بالفكر وإعمال العقل ، وعلينا جميعًا أن نعمل على تحريك هذا الجمود من خلال العمل على

نشر ثقافة التفكير من خلال الصالونات والمنتديات والحلقات النقاشية التي نعد صالون الأوقاف الثقافي واحدًا منها أو من بواكيرها وأهمها في المرحلة الراهنة .

وعلى النقيض من عمل مجموعة من العلماء المفكرين على بث روح التجديد المدروس في إطار الحفاظ على الثوابت فإن هناك على أقصى الطرف الآخر من يعد هذا التجديد كفرًا أو ارتدادًا أو مروقًا من الدين أو أن مجرد التفكير في التجديد هو خروج على الثوابت وهدم لها حتى وإن لم يكن للأمر المجتهد فيه أدنى صلة بالثوابت أو بما هو معلوم من الدين بالضرورة وما هو قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، فقد تبنى منهج الجمود والتكفير والتخوين والإخراج من الدين أناس لا علم لهم ولا فقه ، ولا هم من المجتهدين ولا حتى من أهل الاختصاص أو دارسي العلوم الشرعية من مظانها المعتبرة إذ يسرفون في التكفير ، غير مدركين لا فكرًا ولا شرعًا أن ما يحمل على الإيمان من وجه معتبر وعلى الكفر من تسعة وتسعين وجهًا ينبغي أن نحمله على الإيمان لا على الكفر ما دام له وجه معتبر عند أهل العلم المعتبرين ، يدخل في الإيمان ويخرج من الكفر ، وأنه لا يخرج الإنسان من الإسلام إلا جحد ما أدخله فيه وهو النطق بالشهادتين.

وفي مناظرة بين الإمامين الجليلين الشافعي وأحمد حدثت مناظرة في شأن تارك الصلاة يكفر أو لا يكفر ، فقال الإمام أحمد : يكفر ، وقال الشافعي : لا يكفر ، وبعد طول نقاش قال الشافعي لأحمد :الكافر إذا أراد أن يسلم فماذا يصنع؟ قال أحمد : يأتي بالشهادتين ، فقال الشافعي : الرجل ملازم لهذا القول لم يفارقه منذ ولدته أمه .

ويقول نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم): " من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا ارتد" (صحيح مسلم) ، فلنحذر من الإسراع في التكفير أو الوقوع فيه دون علم أو بينة وحجة قاطعة يحكم بها القاضي لا عامة الناس ولا آحادهم.

* * *

إن جانباً كبيراً من العنف الذي شهدناه على الساحة المصرية ونشاهده على الساحة الدولية إنما يرجع إلى فقدان أو ضعف الحس الإنساني ، واختلال منظومة القيم ، مما يجعلنا في حاجة ملحة إلى التأكيد على الاهتمام بمنظومة القيم الإنسانية ، والتنوع الثقافي والحضاري ، والانطلاق من خلال المشترك الإنساني بين البشر جميعاً.

فقد كرم الحق سبحانه الإنسان على إطلاق إنسانيته دون تفرقة بين بني البشر ، فقال (عز وجل) : " ولقد كرمنا بني آدم " ، فالإنسان بنيان الرب ، من هدمه هدم بنيانه عز وجل.

كما أجمعت الشرائع السماوية على جملة كبيرة من القيم والمبادئ الإنسانية ، من أهمها : حفظ النفس البشرية قال تعالى: " أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً" (المائدة : ٣٢) .

ولهذا قدّر نبينا (صلى الله عليه وسلم) للنفس الإنسانية حرمتها ، فلما مرت عليه جنازة يهودي وقف لها ، فقيل له : إنها جنازة يهودي ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : أليست نفساً ؟.!

ومن القيم التي أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها: العدل ، والتسامح ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، والصدق في الأقوال والأفعال ، وبر الوالدين ، وحرمة مال اليتيم ، ومراعاة حق الجوار ، والكلمة الطيبة ، وذلك لأن مصدر التشريع السماوي واحد ، ولهذا قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " الأنبياء إخوة لعلّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد " (مسند الإمام أحمد) .

فقد تختلف الشرائع في العبادات وطريقة أدائها وفق طبيعة الزمان والمكان ، لكن الأخلاق والقيم الإنسانية التي تكون أساساً للتعايش لم تختلف في أي شريعة من الشرائع، يقول نبينا صلى الله عليه وسلم : " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت " (أخرجه البخاري) .

وأروني أي شريعة من الشرائع أباحت قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، أو أباحت عقوق الوالدين ، أو أكل السحت ، أو أكل مال اليتيم ، أو أكل حق العامل أو الأجير.

وأروني أي شريعة أباحت الكذب ، أو الغدر ، أو الخيانة ، أو خُلف العهد ، أو مقابلة الحسنة بالسيئة.

بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية ، من خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب ، وإنما يخرج

على مقتضى الإنسانية وينسلخ من آدميته ومن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها .

ولهذا قال ابن عباس (رضي الله عنهما) عن قوله تعالى : " قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (سورة الأنعام : ١٥١–١٥٣) .

هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهي محرمات على بني آدم جميعاً ، وهن أم الكتاب أي : أصله وأساسه ، من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار .

وديننا علمنا أن نقول الكلمة الطيبة للناس جميعاً بلا تفرقة ، فقال سبحانه : " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا " (البقرة : ٨٣) ، بل نحن مطالبون أن نقول التي هي أحسن ، يقول سبحانه وتعالى : " وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (الإسراء : ٥٣) .

ويقولون: البر شيء هين وجه طلق وقول لين ، ويقول الحق سبحانه: " وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (فصلت : ٣٥) .

وفي تعاليم سيدنا عيسى (عليه السلام) : " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر " .

في دعوة عظيمة للتسامح في كل الشرائع السماوية لكي تعيش البشرية فى سلام وصفاء ، لا نزاع وشقاق أو عنف وإرهاب .

* * *

الخطاب الديني وثلاث معضلات كبرى

لا شك أن الخطاب الديني قد صار حديث الساعة ، حديث المثقفين ، حديث العامة والخاصة ، ولا شك أن ذلك كله يأتي نتيجة لما أصاب هذا الخطاب في السنوات الأخيرة من سطو وتسلّق عليه ، أو محاولات لاختطافه ، أو المتاجرة به ، وما تبع ذلك من استخدام الدين من قبل أدعيائه المتاجرين به غطاء لعمالتهم وأعمالهم المشبوهة ضد أوطانهم في أعمال عنف أو تخريب ، بل تجاوز الأمر ذلك إلى أعمال قتالية تهدف بأسلوب مباشر وصريح وفج إلى إسقاط دولهم وأوطانهم ، وتفتيتها وتمزيقها ، وتحويلها إلى بؤر وجماعات متصارعة تصارعًا لا يرجى الخلاص منه في القريب العاجل إلا برحمة من الله (عزّ وجل) ، ويقظة منّا جميعًا ، أفرادًا ودولاً ، وإدراكًا لحجم المخططات والمؤامرات التي تستهدف أمتنا ومنطقتنا العربية على وجه الخصوص .

ولا ينكر أحد أن حجم الإجرام والتخريب الذي يقوم به بعض المنتسبين إلى الجماعات والتيارات التي تتخذ من الدين ستارًا وشعارًا قد فاق كل التصورات ، وتجاوز كل معاني الإنسانية إلى درجة يوصف معها من يقوم بهذا الإفساد والتخريب بالخيانة للدين والوطن معًا ، مما جعل بعض

الكتّاب يتجاوز باتهامه المخربين والمفسدين إلى الخطاب الديني نفسه ، ما بين عاقل يفرق بين الغث والثمين ، وآخر يعمم الأحكام بلا إنصاف ولا رويّة ، لأن الفتنة أحيانًا تجعل الحليم حيران .

وأرى أن الخطاب الديني تكتنفه ثلاث معضلات كبرى ، الأولى : هي معضلة الجمود ، من هؤلاء المنغلقين الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أن باب الاجتهاد قد أغلق ، وأن الأمة لم ولن تلد مجتهدًا بعد . وأنها عقمت عقمًا لا برء منه ، متناسين أو متجاهلين أن الله (عز وجل) لم يخص بالعلم ولا بالفقه قومًا دون قوم ، أو زمانًا دون زمان ، وأن الخير في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى يوم القيامة .

المعضلة الثانية : معضلة الخوف من الإسلام ، أو ما يُعرف بـ " الإسلامو فوبيا " ، مما يجعل بعض هؤلاء المتخوفين يظن خطأ أن علاج التشدد إنما يكون بالذهاب إلى النقيض الآخر ، مما يعود بنا إلى عقود من الصراع حدث فيها خلط كبير بين مواجهة التطرف وأهمية التدين ، حيث توهم بعض المتخوفين من الإسلام أن محاربة التطرف تقتضي وتستلزم تجفيف منابع التدين ، فاصطدموا بالفطرة الإنسانية ، " فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا " ، ونسوا أن أفضل طريق لمواجهة التطرف هي نشر سماحة الأديان ، وتحصين

الناس وبخاصة الناشئة والشباب بصحيح الدين ، وأنك لا تستطيع أن تقضي على التطرف من جذوره إلا إذا عملت بنفس القدر والنسبة على مواجهة التسيب والانحلال والإلحاد الذي صار موجهًا لخلخلة مجتمعاتنا شأن التشدد سواء بسواء .

ومن هنا كان وعي الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف ووزارة الشباب والرياضة بخطورة الإلحاد والتسيب ، فأطلقت وزارتا الأوقاف والشباب مبادرة مشتركة لمواجهة الإلحاد تحت عنوان : " بالعقل كده " ، إيمانًا منهما بخطورة الإلحاد على أمن الوطن واستقراره ونسيجه الاجتماعي .

وفي هذا نؤكد أن المساس بثوابت العقيدة والتجرؤ عليها وإنكار ما استقر منها في وجدان الأمة لا يخدم سوى قوى التطرف والإرهاب وخاصة في ظل الظروف التي نمر بها ، لأن الجماعات المتطرفة تستغل مثل هذه السقطات لترويج شائعات التفريط في الثوابت مما ينبغي التنبه له والحذر منه ، فإذا أردنا أن نقضي على التشدد من جذوره فلابد أن نقضي على التسيب من جذوره ، فلكل فعل رد فعل مساو له في النسبة ومضاد له في الاتجاه.

المعضلة الثالثة : هي الخوف من التجديد أو التجاوز فيه ، فلا شك أن التجديد يحتاج إلى شجاعة وجرأة محسوبة، وحسن تقدير للأمور في آن واحد ، كما أنه يحتاج من

صاحبه إلى إخلاص النيّة لله بما يعينه على حسن الفهم وعلى تحمل النقد والسهام اللاذعة .

ولكي نقطع الطريق على أي مزايدات فإنني أؤكد على الثوابت والأمور التالية :

١- أن ما ثبت بدليل قطعي الثبوت والدلالة ، وما أجمعت عليه الأمة وصار معلومًا من الدين بالضرورة كأصول العقائد وفرائض الإسلام من وجوب الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، كل ذلك لا مجال للخلاف فيه ، فهي أمور توقيفية لا تتغير بتغيّر الزمان ولا المكان و الأحوال ، فمجال الاجتهاد هو كل حكم شرعي ليس فيه دليل قطعي الثبوت والدلالة .

٢- مع تقديرنا الكامل لآراء الأئمة المجتهدين فإننا ندرك أن بعض الفتاوى ناسبت عصرها وزمانها ، أو مكانها ، أو أحوال المستفتين ، وأن ما كان راجحًا في عصر وفق ما اقتضته المصلحة في ذلك العصر قد يكون مرجوحًا في عصر آخر إذا تغير وجه المصلحة فيه ، وأن المُفْتَى به في عصر معين ، وفي بيئة معينة ، وفي ظل ظروف معينة ، قد يصبح غيره أولى منه في الإفتاء به إذا تغيّر العصر ، أو تغيّرت البيئة ، أو تغيّرت الظروف ، ما دام ذلك كله في ضوء الدليل الشرعي المعتبر، والمقاصد العامة للشريعة .

٣- أننا نؤمن بالرأي والرأي الآخر ، وبإمكانية تعدد الصواب في بعض القضايا الخلافيّة ، في ضوء تعدد ظروف الفتوى وملابساتها ومقدماتها ، وإذا كان بعض سلفنا الصالح قد قال : رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب ، فإننا نذهب أبعد من ذلك فنقول : إن كلا الرأيين قد يكونان على صواب ، غير أن أحدهما راجح والآخر مرجوح ، فنأخذ بما نراه راجحًا مع عدم تخطئتنا لما نراه مرجوحًا ، ما دام صاحبه أهلا للاجتهاد ، ولرأيه حظ من النظر والدليل الشرعي المعتبر ، فالأقوال الراجحة ليست معصومة ، والأقوال المرجوحة ليست مهدرة ولا مهدومة .

٤- أن تسارع وتيرة الحياة العصرية في شتى الجوانب العلمية والاقتصادية والتكنولوجية ، إضافة إلى التقلبات والتكتلات والتحالفات والمتغيّرات السياسية ، كل ذلك يحتم على العلماء والفقهاء إعادة النظر في ضوء كل هذه المتغيّرات ، ويعلم الجميع أن الإقدام على هذا الأمر ليس سهلا ولا يسيرًا ، ويحتاج إلى جهود ضخمة من الأفراد والمؤسسات ، غير أننا في النهاية لابد أن ننطلق إلى الأمام ، وأن نأخذ زمام المبادرة للخروج من دائرة الجمود .

مع التأكيد مرة أخرى أن هذا التجديد ينبغي ألا يتجاوز ثوابت الشرع ، وأن ينضبط بميزاني الشرع والعقل ، وألا

يترك نهبًا لغير المؤهلين وغير المتخصصين أو المتطاولين الذين يريدون هدم الثوابت تحت دعوى التجديد ، فالميزان دقيق ، والمرحلة في غاية الدقة والخطورة ، لما يكتنفها من تحديات في الداخل والخارج ، فالمتخصص المؤهل إذا اجتهد فأخطأ فله أجر ، وإن اجتهد فأصاب فله أجران ، الأول لاجتهاده والآخر لإصابته ، أما من تجرأ على الفتوى بغير علم ، فإن أصاب فعليه وزر ، وإن أخطأ فعليه وزران ، الأول لاقتحامه ما ليس له بأهل ، والآخر لما يترتب على خطئه من آثار كان المجتمع والدين معًا في غنى عنها ، في ظل أوقات تحتاج إلى من يبني لا من يهدم .

* * *

الخطاب الديني المفترى عليه

لا ينكر أحد أن الخطاب الدينى الصحيح أحد أهم عوامل تحقيق استقرار المجتمعات والإسهام فى أمنها وأمانها، فبالخطاب الدينى الصحيح يتحقق العيش السلمى المشترك بين البشر ، وبه تتحقق العدالة والمساواة والحرية المنضبطة لا المنفلتة ، وبه يتحقق الأمن النفسي ، وبه تنضبط علاقات البشر فيما بينهم ، وبه تترسخ القيم الأخلاقية والإنسانية ، من الرحمة، والتسامح ، والتكافل ، والتعاون ، والصدق ، والوفاء ، والأمانة ، وبه تحفظ الدماء والأعراض والأموال والحرمات ، وبه يتحقق الجمال والنظافة والتحضر والرقي ، وبه تسير عجلة العمل والإنتاج وعمارة الكون فى طريقها الصحيح ، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله .

وتلك الأصول الراسخة أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها، لم تختلف فى أي ملة منها ، يقول الحق سبحانه : " قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا

وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (الأنعام : ١٥١-١٥٣) ، حيث يعلق سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) على هذه الآيات بقوله : تلك آيات محكمات أجمعت عليها الشرائع السماوية ، ولم تنسخ في واحدة منها.

وباختطاف المنتفعين من تجار الدين وطلاب السلطة للخطاب الديني ، ومحاولة توظيفه لمصالح حزبية أو شخصية أو طائفية ، حدث التشكيك في نوايا وضمائر الناس ، ثم تكفيرهم ، ثم الاعتداء على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، ورأينا ما لا قبل للبشرية السوية به من قطع رءوس الأطفال والكبار ، وانتهاك أعراض نساء مسلمات وغير مسلمات تحت مسميات ومبررات ما أُنزل بها من سلطان ، والأدهى والأمرّ أن ترتكب هذه المجازر الوحشية والأفعال غير الآدمية ولا السوية ، باسم الدين ، وباسم الإسلام ، وتحت راية القرآن ، والإسلام ، والقرآن من كل ذلك براء ، ولم نر حمية للدين ولا الوطن ممن كانوا يزعمون أنهم حماة الدين بالأمس عبر بعض الفضائيات ، وكأن ذلك قد وافق هوى لديهم ، لم نجد بيانًا واحدًا يشفي غليلا ، ولا مؤتمرًا

حاشدًا يرسل إشارة إيجابية مطمئنة منكرة أو مستنكرة لهذا العبث الذى يحدث باسم الإسلام ، اللهم إلا تلك المحاولات الجادة التى يحاولها فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب شيخ الأزهر ، وتقوم وزارة الأوقاف بتطبيقها على أرض الواقع ، وهى جهود وإن بدت للبعض غير منظورة ، وإن كانت تحتاج مواصلة الليل بالنهار ، فما لا يدرك كله لا يترك كله ، والدعوة كالطفل أو النبات تنمو نموًا غير ملحوظ لكنها فى النهاية إن كُتب لها التوفيق تنتج رجلا أو ثمرًا يراه الناس رأى العين ، ويفيدون منه إفادة واضحة ملموسة.

غير أن الخطاب الدينى فى العقود والسنوات الأخيرة قد صار كلأً مباحًا ونهبا لغير المؤهلين وغير المتخصصين ، ومطية للمنتفعين وتجار الدين، ولم يكن فى وسع المؤسسات الرسمية آنذاك أن تتحرك الحركة الكافية لكبح جماح هؤلاء المنتفعين والمتسلقين حتى استفحل الداء وصار عضالا، وأصبح استئصال الورم الخبيث فى جسم الخطاب الدينى يحتاج إلى جراحة عاجلة وسريعة على أيدي أمهر الأطباء فى جراحة مثل هذه الأورام ، وبدأت محاولات جادة وحاسمة ، غير أن داء آخر قد دخل على الداء الأول فأصبح الداء داءين نتيجة عدم وضع الأمور فى نصابها ،

وذلك عندما حاول غير المتخصصين فى مثل هذه الجراحات الافتراء على المتخصصين فيها ، وأخذ أماكنهم ، ومحاولة النيل منهم ، فتداخلت الأمور لدى بعض الناس وارتبكت ، على أنها – وينبغى أن تكون – أوضح من الشمس فى رابعة النهار ، كما أن ذهاب البعض إلى الطرف الآخر من المعادلة وهو طرف التسيب والانحلال، والخلط السيئ بين مواجهة التطرف والتدين لدى غير المؤهلين لمعالجة قضايا الخطاب الدينى قد زاد من إرباك المشهد، وأمد المتطرفين والمتشددين بحجج ما كان لهم أن يفتنوا بها عقول الشباب لو أن الحكمة والتخصص وعقلانية المعالجة تُركت إلى أهل العلم الحقيقيين.

وفى ذلك أؤكد أن الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف المصرية على الرغم من أنهما يحملان حملا ثقيلا من تركات مضت إلا أنهما هما المؤهلان لقيادة الفكر الوسطى بلا إفراط أو تفريط ، وأستطيع أن أقول وباطمئنان :إنه لا توجد جهة فى العالم كله يمكن أن تقوم فى مواجهة الإرهاب الفكرى ورفع الدعم والغطاء الأدبى والمعنوى عنه ، ونشر سماحة الإسلام داخل مصر وخارجها بمعشار ما يقوم به الأزهر الشريف والأوقاف المصرية فى ذلك.

* * *

ماذا خسر العالم الإسلامي
بظهور جماعات الإسلام السياسي ؟

لقد ظهرت حركة وطنية في كثير من دول العالم تدعو إلى الاستقلال عن قوى الاستعمار ، بعضها تحت مسمى حركات الاستقلال والأخرى تحت مسمى حركات التحرر أو التحرير ، وقد حقق معظمها أهدافه ووصل إلى ما يصبو إليه دون أن يجعل من الدين ستارًا ، بل إن حركات التحرر والاستقلال الوطني ضمّت في كثير من الدول أصحاب أديان وعرقيات مختلفة ، جمعهم جميعا وحدة الهدف ومصلحة الوطن .

أما ظهور أحزاب وجماعات وجمعيات الإسلام السياسي فقد جرّ على منطقتنا العربية ويلاتٍ كثيرة ، وبخاصة بعد أن بدت ظاهرة التكسب بالدين أو المتاجرة به واضحة لدى كثير من الحركات والجماعات التي عملت على توظيف الدين لتشويه خصومها من جهة ، وتحقيق مطامعها السلطوية من جهة أخرى ، فصارت محاربة الإسلام تهمة جاهزة لكل خصوم حركات وأحزاب وجماعات ما يعرف بالإسلام السياسي ، ناهيك عن تجاوز ذلك إلى تهم التخوين والتكفير والإخراج من جماعة المسلمين ، بل الحكم على المخالفين أحيانًا بأن أحدًا منهم لن يجد رائحة الجنة ، وإن رائحتها

لتوجد من مسيرة كذا ومسيرة كذا ، وبدا خلط الأوراق واضحًا جليًا عن عمد لا عن غفلة لدى أكثر هذه الجماعات ، بل إن الأمر قد ذهب إلى أبعد من هذا عندما نصّبت بعض أحزاب وحركات وجماعات ما يعرف بالإسلام السياسي من نفسها وصيًا على الدين ، مع فقدان كثير من كوادرها للتفقه الصحيح في الدين ، وخروج بعضهم علينا بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان ، اللهم إلا سلطان الهوى والسلطة وحب الظهور أحيانًا .

لقد رأينا في تجربة الإخوان المرة إلى أي مدى وصل الهوس بالسلطة ، وحب الظهور الإعلامي ، والإحساس غير المسبوق بالنشوة والتميز الذي وصل لدى بعضهم إلى درجة العنصرية المقيتة التي ولدت إقصاء ممنهجًا لكل من لا يسير في ركابهم أو يرضى عنه تنظيمهم ومرشدهم ، حتى لو كان هذا المرشد المزعوم لا علاقة له بسياسة الدول أو قيادة الأوطان ، وقطعوا كل ما من شأنه تحقيق ولو أدنى درجة من التواصل مع القوى الوطنية والمجتمعية لصالح البلاد والعباد ، فأخذوا يكيلون تهمًا ما أنزل الله بها من سلطان ، ويدبرون مكائد مكشوفة لا يليق أن تصدر عن ساسة ولا حتى سوقة لمؤسسات وطنية عريقة ، كالأزهر الشريف وجامعته ، ومؤسسة قضائنا العريق الشامخ ، ولا يخفى على أحد ما كان

من حصار المحكمة الدستورية ، وتخفيض عدد أعضائها نكاية ببعض قضاتها ، وما تبع ذلك مما عرف آنذاك بالإعلان الدستوري المكمل أو قل دون تردد المكمم ، الذي أريد له أن يجعل من رئيسهم المعزول نصف إله على الأقل ، مما يستدعي إلى الذاكرة ما ذكره القرآن الكريم عن فرعون مصر حين قال كما ذكر القرآن الكريم على لسانه: " مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ " (غافر :٢٩) ، ولم تسلم مؤسسة وطنية واحدة من محاولة تفكيكها وإعادة بنائها بطريقتهم ، فإن لم يستطيعوا ، عمدوا إلى غمزها ولمزها ، أما المفكرون والمثقفون والإعلاميون فنالهم النصيب الأوفى من تهم الخيانة والعمالة وسائر الأوصاف التي يعفّ أي مسلم عاقل عن رمي أي إنسان بها بلا بينة ولا دليل قاطع .

لقد أعطى هؤلاء المتسترون بالإسلام الذرائع أكثر من مرة لأعداء الأمة للتدخل في شئونها تحت مسميات متعددة المعلن منها مواجهة الإرهاب ، ثم خرجت من عباءة هذه الجماعات والحركات والأحزاب جماعات يائسة أخذت تتبنى العنف والإرهاب والتكفير والتفجير والعمليات الانتحارية مسلكًا ومنهجًا ، ووجدت بعض قوى الاستعباد المسمى الاستعمار الجديد في هذه الجماعات اليائسة من التكفيريين والانتحاريين ضالتها ، فتعهدتها ونمّتها وغذتها

وأمدتها بالمال والسلاح ، لتحقيق مآربها في تفتيت كيان المنطقة العربية والاستيلاء على نفطها وخيراتها ومقدراتها من جهة ، وتشويه صورة الإسلام وربطه بالإرهاب من جهة أخرى .

فبعد أن كان المسلمون هم رسل السلام إلى العالم أخذت صورتهم تُسوّق على أنها رديف الإرهاب والقتل والدمار ، ومن كان لديه ذرة من المكابرة فلينظر فيما أصاب دولا بأكملها كـ : ليبيا ، وسوريا ، والعراق ، وأفغانستان ، إضافة إلى ما يحدث في اليمن ، وباكستان ، والصومال ، ومالي ، وكثير من دول وبلاد الإسلام .

إنني أرى وأقترح أن تُؤْثِر أحزاب وحركات وجماعات وجمعيات الإسلام السياسي المصلحة الحقيقية للإسلام على مصالحها الحزبية والشخصية وأطماعها ومآربها السلطوية ، وأن تترك المجال الديني للعلماء والدعاة المتخصصين الفاقهين ، لعلهم يستطيعون أن يصلحوا ما أُفسدَ قبل فوات الأوان ، وقبل أن تكون عاصفة لا تبقي ولا تذر .

إن البشرية الآن في حاجة إلى من يحنو عليها من جديد ، ومن يأخذ بيدها إلى طريق الهداية وإلى مكارم الأخلاق ، بالعمل لا بالقول وحده ، وبالحكمة والموعظة الحسنة لا تحت تهديد السلاح ولا حد السيف ، استجابة

لقوله تعالى : " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (النحل : ١٢٥) .

إن هناك كثيرًا من دول العالم التي كانت ترسل طلابها إلينا لتعلم سماحة الإسلام صارت تتخوف على أبنائها أن يأتوا إلى بلادنا ، ثم يعودوا إليها إرهابيين أو متشددين ، وأن بعض الدول التي كانت تفتح أبوابها للعمل أمام أبنائنا صارت أبوابها موصدة مغلقة ، ألا يستحق كل هذا من هذه الجماعات والحركات والأحزاب أن تراجع نفسها وتعود إلى رشدها وصوابها ، لله وللوطن ؟!

* * *

اسس الحوار الحضاري

يُعدُّ مؤتمر « الحضارات في خدمة الإنسانية » الذي شاركنا في افتتاحه وبعض ندواته بالعاصمة المنامة بدولة البحرين الشقيقة ، نقطة مضيئة ولبنة قوية في ترسيخ أسس الحوار وتقوية أواصره.

ولا شك أن المراكز والمعاهد والمنتديات والمؤتمرات المتعلقة بالحوار بين الحضارات صارت ظاهرة تنم عن شدة الوعي بأهمية الحوار وخطورة الصدام ، غير أنها - وإن كانت تسهم في تخفيف حدة التوتر - إلا أنها لم تؤت أكلها المنشود على أرض الواقع ، فثمارها لما تنضج بعد.

ولا شك أيضًا أننا ينبغي أن نعظم دور المراكز والمعاهد المعنية بالحوار بين الأديان والثقافات والحضارات ، وأن نعمل على الإفادة من التوصيات التي تنتهي إليها البحوث والمنتديات والمؤتمرات المتعلقة بهذا الشأن ، وأن نبني ذلك على مرتكزات محددة وأسس واضحة للحوار.

ومن أهم هذه الأسس :

١ - تحكيم لغة العقل ورغبة جميع الأطراف في نبذ العنف والكراهية والتطرف والإرهاب ، إيمانًا بأن قضية الصراع ليس فيها رابح مطلق أو خاسر مطلق ، وأن عواقب الصراع والعنف والتطرف وخيمة على الإنسانية جمعاء ، وأنه لا بديل

للإنسانية عن البحث في القواسم والمصالح المشتركة، ونقاط الالتقاء لما فيه خير البشرية بعيدًا عن الحروب والصراعات والقتل والاقتتال والتخريب والتدمير.

٢- السعي إلى التعارف ، وطريق الانفتاح على الثقافات الأخرى ، وليس الانغلاق المحكم الذي يؤدي بنا إلى الخوف من الآخر المجهول، فتعميق الوعي بالآخر وثقافته ومجريات حياته يجعله بالنسبة لنا أقل غرابة ، ويجعل الحوار معه أكثر يُسرًا وأسهل مأتى وتناولا.

وقد حثنا الإسلام على هذا التعارف والسعي إليه فقال سبحانه وتعالى : "وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا "، ويقولون: مَن جهل شيئًا عاداه ، وإذا كان الحكم على الشيء فرعًا عن تصوره كما يقول المناطقة فلابد أن نتعرف على ما لدى الآخر من قيم ومُثُل وثقافات ، وأن نحلل ذلك تحليلا جيدًا محايدًا ومنصفًا قبل الحكم له أو عليه ، وألا تكون لدينا أحكام وقوالب جاهزة مسبقة في الحكم على الآخرين ، وهو ما تنبه إليه شيوخ الأزهر الشريف عبر تاريخه الطويل.

٣- أن تكون لدى جميع الأطراف الرغبة الحقيقية في إعلاء القيم المشتركة وتجنب جميع مظاهر الأنانية والاستعلاء ، يقول فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر

في كلمته التي ألقاها في افتتاح مؤتمر " الحضارات في خدمة الإنسانية " لقد كان المسلمون منصفين لأصحاب الحضارات الأخرى إلى أبعد الحدود ، حتى وإن خالفوهم الرأي وعارضوهم فيه ، وقد بلغ من إنصاف المسلمين أنهم كانوا يقبلون الحق من غيرهم ويشكرونهم عليه ، ويتحفظون على ما يخالف الحق ويعذرونهم فيه ، يقول الفيلسوف المسلم ابن رشد محددًا منهجه في الأخذ من ثقافة اليونان وغيرهم يجب علينا أن ننظر في الذي قالوه وما أثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم ، وسُررنا به ، وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبّهنا عليه وحذّرنا منه ، وعذرناهم .

ولا شك أن التعالي والاستعلاء من جانب الغرب قد أضاعا على العالم فُرصًا كبرى للتلاقُح والتثاقُف بين حضارة الغرب وحضارات الشرق ، والتي هي أعرق من حضارة الغرب ، وأكثر منها عقلانية وواقعية ، وكان بإمكانها لو تخلّى الغرب عن سياسة الاستعلاء أن تُنقذ العالم من حروب القرن الماضي ، وما خلّفته من كوارث وخراب ودمار ، بل ومن الحروب التي تتربّص به اليوم من جديد .

هذا التعاون أو التعارف بين الحضارات ، والذي أضاعه الغرب ، وكان مصدر أسى وندم عند عقلائه وحكمائه تَنبّه إليه شيوخ الأزهر منذ أربعينيات القرن الماضي ، ودعوا إليه ، وإلى نشر ثقافة التسامح لصالح البشرية كلها.

٤- التركيز على الإفادة من النافع والمفيد ، وغض الطرف عن خصوصيات الآخر الثقافية التي لا تتفق مع قيمنا وحضارتنا ، في ضوء الاحترام المتبادل بين الأمم والشعوب ، من غير أن يحاول الغرب أن يفرض قيمه وأنماط حياته الخاصة على الشرق ، ولا أن يحاول الشرق حمل الغرب حملا على مفردات حضارته وثقافته وقيمه وتراثه ، بل على الجميع أن يُعلي من شأن القيم المشتركة من حرمة الدماء والأعراض والأموال ، والحرص على الأمانة والصدق والوفاء وما أجمعت عليه الشرائع السماوية والقيم الإنسانية ، فيبحث الجميع عن المتفق عليه ، ويعذُر بعضهم بعضًا في المختلف فيه.

* * *

الإسلام بين ظلمين

قد يُظلَم المرء أو الإنسان من أعدائه فيصمد أو يصبر، غير أن الظلمَ الأشدَ مضاضةً والأكثرَ إيلامًا هو ظلم ذوي القربى ، على حد قول الشاعر العربي:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

فكيف والإسلام واقع بين الظلمين جميعا ، ظلم أبنائه من جهة وظلم أعدائه والحاقدين عليه والمتربصين به والمسيئين إليه من جهة أخرى ، فمن الجهة الأولى نرى تلك التصرفات الهوجاء الحمقاء لبعض المنتسبين اسما وشكلا أو ظلمًا وزورًا إلى الإسلام ممن انتهجوا التكفير والتفجير ، والقتل والتدمير ، والإفساد والتخريب ، مسلكًا ومنهجًا ، وزيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم، فخدعوا أنفسهم وظلوا يتمادون في خداعهم وغيهم وعدوانهم حتى حسبوه الدين الذي يجب أن يتمسكوا به.

وفي الوقت الذي رفض فيه العالم الإسلامي والعالم العربي كلاهما هذا العدوان الآثم على المجلة الفرنسية وما تبعه من أعمال أخرى ينكرها الإسلام وسائر الأديان ، انتفض المسلمون في كل مكان يعلنون استنكارهم لكل هذه الأفعال الهوجاء ، وقد اصطحبتُ مجموعة من قيادات

الأوقاف لتقديم واجب العزاء للسفير الفرنسي بالقاهرة وللشعب الفرنسي كله عبر سفارته بمصرنا الغالية ، وأكدنا خلال اللقاء أن ربط الإرهاب بالإسلام ظلم للإسلام ، كما أن ربطه بأي دين ظلم للأديان ، لأن الأديان كلها مُجمعة على حرمة الدماء والأموال والأعراض ، فالإرهاب لا دين له ، ولا جنس له ، ولا وطن له ، ويحتاج إلى اصطفاف إنساني قبل أن يستشري خطره فيأكل الأخضر واليابس في همجية ووحشية لا تبقي ولا تذر كما أكدتُ أن هذا الاعتداء الآثم قد حول المجلة التي كانت في موقع الجاني إلى ضحية ، وإن كانت لا تزال تعاود إساءتها وعنادها وعتوها واستكبارها في إعادة نشر الرسوم المسيئة لنبينا (صلى الله عليه وسلم) كما أنه حوّل المسلمين من موقع الضحية المجني عليه إلى جان متجاوز يقابل القلم بالرصاص ، على أن من قام بهذا الفعل هم قلة مارقة يعاني منها المسلمون أكثر من غيرهم إلا أن طوائف اليمين المتطرف ومن يقف إلى جواره من العدو الصهيوني يريد أن يعمم الصورة لتشويه صورة الإسلام والمسلمين.

وهنا أسجل عدة ملاحظات :

١- أولها : تأكيدنا على حرمة الدماء وعصمة الأنفس، ونبذ كل ألوان العنف والتطرف والإرهاب ، والعدوان والاعتداء ، وأن الفكر يواجه بالفكر أو بالقانون لا بالدم ولا بالرصاص.

٢- أننا نحذر من استفزاز مشاعر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، لأن الإساءة إلى الأديان وإلى نبي الإسلام تُعد أكبر زاد ووقود لتلك الجماعات المتطرفة ، بل إن قيامها بهذه العمليات الإرهابية تجاه من يسيئون إلى الإسلام أو نبيه قد يُكسبها شيئًا من التعاطف لدى من يقتنعون بفكرها ممن يتوهمون خطأ أنها تعمل للإسلام وتحارب أعداءه ، وتعمل على التمكين لدولة الخلافة المكذوبة التي يزعمون سهرهم على قيامها.

٣- إن العالم المعاصر لا يمكن أن ينقسم إلى قسمين منفصلين منعزلين ، أحدهما : دول آمنة مطمئنة مستقرة ، والآخر : دول قلقة مضطربة غير آمنة ولا مستقرة ، لأن العالم صار أشبه ما يكون بقرية واحدة ، ما يحدث في شرقه تجد صداه في غربه ، وما يحدث في شماله ترى أثره في جنوبه، ومن هنا فإن على عقلاء العالم وحكمائه العمل معا في اصطفاف دولي وإنساني لمواجهة الإرهاب بكل أشكاله وألوانه في مواجهة شاملة ، إذ إن العمليات الانتقائية في مواجهة الإرهاب لا تجدي ولا تسمن ولا تغني من جوع، فالإرهاب كالسرطان وسائر الأمراض الخبيثة التي لا يصلح فيها ولا معها غير الاستئصال الكامل ، قبل أن تفسد حياة المرء كلها.

٤- ينبغي أن ننظر إلى الإنسان كإنسان كما كرمه الله بغض النظر عن جنسه أو لونه أو دينه ، وأن نتعامل مع حقوقه بمعايير ثابتة لا أن نتعامل مع حقوق الغرب بمعيار، وحقوق الشرق بمعيار كما يفعل اليهود ويزعمون أنهم شعب الله المختار.

ونؤكد أن الأمم قد شبت عن الطوق ولم تعد تتقبل ما كان بالأمس من ازدواج المعايير والكيل بمائة كيل ، فعندما يعتدي على اليهودي أو الأبيض أو الأوروبي يكون الاعتداء مجرّما ومحرّما ومأثما ومرفوضا ومستنكرًا ومنبوذًا من الصغير والكبير ومن العالم كله ، وعندما يهدر الدم العربي أو الإفريقي أو المسلم لا يلتفت إليه إلا على استحياء ، وقد لا يلتفت إليه لا على استحياء ولا على غير استحياء ، مما يثير حفائظ تلك الشعوب والأجناس وأهل الديانة الذين يعاملون على أنهم بشر من الدرجة الثانية أو الثالثة.

٥- ونرى أن الأمر صار يتطلب تشريعًا دوليًا يُجرّم ازدراء الأديان والرموز والمعتقدات الدينية ، كما نُؤمّل أن تكون هناك مساواة فعلية بين البشر في الحقوق والواجبات ، وأن يتخلص الناس من نظرات التكبر والاستعلاء أو الاحتقار والازدراء بعضهم تجاه بعض.

الثقافة وبناء الفرد والمجتمع

لاشك أن الإنسان يتحرك في الحياة من منطلق خبرته وثقافته ، وأن ثقافة الإنسان تؤثر تأثيرا بالغا في ضبط سلوكه وتصرفاته ، وعلاقاته الأسرية والمجتمعية والإنسانية ، ومستوي أدائه لعمله وإتقانه له ، ودرجة وطنيته ، وإحساسه بالمخاطر التي تحيط بوطنه ، وأثر العلاقات والتوازنات الدولية علي المصالح الوطنية ، ومدى تأثره بها وتأثيره فيها ، وكذلك مستوى علاقته وتعايشه مع الآخرين.

ومن هنا لم يعد الاهتمام بالثقافة والتكوين الثقافي للفرد والمجتمع ترفًا أو أمرًا ثانويًا أو من نافلة القول أو العمل ، إنما هو أمر في صميم المصلحة الوطنية ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن المصلحة الوطنية لا يتم تحققها الكامل دون إطار أو وعاء ثقافي مدروس ومتكامل.

ونؤكد أن مؤسسات عديدة تسهم في هذا التكوين، من أهمها: الأسرة ، والمدرسة ، والمسجد ، والجامعة ، ومراكز الشباب ، والإعلام مقروءا ومسموعا ومرئيا ، وصارت مواقع التواصل الاجتماعي والإلكتروني أحد أهم عوامل وروافد تشكيل الوعي الثقافي للأفراد والمجتمعات.

وبما أن وزارة الأوقاف على وعي بذلك كله فإن دعوتها وقوافلها الدعوية التي تتم بالتنسيق مع الأزهر الشريف ،

وتحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر تضع أهمية هذا التنوع نصب أعينها ، فتتنوع القوافل والمحاضرات والندوات لتعم المساجد ، والمدارس ، والجامعات ، ومراكز الشباب ، والتجمعات العمالية ، غير أن هذه القوافل لا يمكن أن تؤتي ثمرتها الكاملة والمرجوة إلا بتضافر جهود تلك المؤسسات التي تم ذكرها في مجال التربية والتثقيف.

التنوع الثقافي في مواجهة الانغلاق :

ولكي يحدث انفتاح في الأفق الثقافي للفرد والمجتمع فلابد من التنوع في مواجهة الانغلاق وانسداد الأفق والانكفاء على الذات ، وأحادية البعد الثقافي ، بحيث إنك قد تلتقي إنسانا حصل على أعلى الشهادات الجامعية في تخصص نظري أو تطبيقي ومع ذلك تراه ضيق الأفق ، محدود الثقافة ، غير قادر علي التواصل الجاد مع المجتمع ، وليست لديه القدرة على تفهم ما لدى الآخر من معطيات وقناعات فكرية أو ثقافية أو وطنية.

ومن هنا تأتي أهمية إعادة النظر في كم ونوعية المكون الثقافي في التعليم الجامعي وقبل الجامعي ، ومدي تنشيط دور مراكز الشباب في الحوار المجتمعي ، وأن يعمل الخطاب الدعوي على الإسهام في ذلك بفاعلية كبيرة.

وقد صار لدينا الآن في الأزهر والأوقاف نخبة متميزة من الدعاة الذين يجيد بعضهم لغة أو لغتين إلى جانب إتقانه

للعربية ، مما يجعله قادرا لا أقول على التواصل المجتمعي فحسب ، إنما يجعله قادرا على التواصل على مستوى دولي وعالمي ، ومتمكنا من التعامل بفاعلية مع الوسائل العصرية التي تمكنه من فهم الواقع من جهة ، وأداء رسالته بفاعلية واقتدار من جهة أخرى .

الثقافة والقيم:

إذا كنا على يقين بأن الإفراط شر كله ، وأن التفريط شر كله ، وأن التوازن كل التوازن في الوسطية حيث لا إفراط ولا تفريط ، فإذا كنا ننبذ التشدد والتطرف والغلو فبنفس القدر ينبغي أن ننبذ كل مظاهر التحلل والانحراف عن طريق الجادة ، فإنك لن تستطيع أن تقتلع التشدد من جذوره إلا إذا عملت بالقدر نفسه على القضاء على التحلل والانحراف وكل ما يمكن أن يمس القيم الراسخة للمجتمع، فكما يقول علماء النفس لكل فعل رد فعل مساو له في النسبة ومعاكس له في الاتجاه ، ويقولون لكل شيء طرفان ووسط فإن أنت أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر ، وإن أنت أمسكت بالوسط استقام لك الطرفان ، ولذا قال الإمام الأوزاعي (رحمه الله) : ما أمر الله عز وجل في الإسلام بأمر إلا حاول الشيطان أن يأتيك من إحدى الجهتين لا يبالي أيهما أصاب الإفراط أو التفريط ، فنحن مع التيسير لا مع التسيب ، ومع السماحة لا التفريط ، و مع الالتزام الديني والقيمي والأخلاقي دون أي تشدد أو تطرف أو جمود

أو انغلاق ، فبين التشدد والالتزام خيط جد دقيق ، وبين التيسير والتسيب خيط جد دقيق ، والعاقل من يدرك هذه الفروق الدقيقة ، ويقف عند حدودها فاقها لها متعاملا معها فاقها لها ، غير غافل عنها، وقد قيل لسيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) : حب التناهي شطط خير الأمور الوسط، هل تجد هذا المعنى في كتاب الله عز وجل ؟ قال نعم في عدة مواضع ، منها قوله تعالي: " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا " (الإسراء : ٢٩) ، وقوله تعالى: " وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً " (الفرقان : ٦٧) .

* * *

العلاقة بين الدعوة والسلطة

ينظر بعض الناس إلى العلاقة بين الدعوة والسلطة على أنها في الغالب الأعم لا تخرج عن أحد نمطين:

الأول: يتمثل في تبعية الدعوة للسلطة ، والآخر يتمثل في صدام الدعوة مع السلطة ، وبالفعل فإن التاريخ في أكثر البلاد العربية والإسلامية في مراحل كثيرة منه قد دار في فلك هذين النمطين ، مع ما لكل منهما من مخاطر وتداعيات.

أما النمط الأول: فهو نمط تبعية الدعوة للسلطة تبعية عمياء وصلت في بعض المراحل وفي بعض البلدان إلى مزايدة بعض المحسوبين على الدعوة وعلى العلماء مزايدة فاقت ما كانت تطمح إليه السلطات القائمة آنذاك ، فقد ولّد ذلك احتقانا شديدًا لدى كثير من الناس وبخاصة الشباب في هذه المراحل ، لأن السلطة عندما توظف الدعوة وتوجهها توجيها سياسيا خالصا للسير في ركابها مع ضعف الدعوة عن أي لون من المراجعة أو الحوار الراقي أو النصيحة الشرعية الواجبة التي يتطلبها الواجب الشرعي وعلاقة الاحترام المتبادل بين الدعوة والسلطة لما فيه مصلحة الوطن فإن ذلك يؤدي إلى نفور الناس وبخاصة الشباب من تصرفات العلماء المحسوبين على السلطة ، ثم ينسحب هذا النفور على كل علماء المؤسسات الدينية

الرسمية ، فيبحث هؤلاء عن البديل الذي لا يرونه تابعا للسلطة حتى لو كان من غير أهل العلم أو الفتوى أو التخصص الشرعي ، وينطبع في أذهانهم أن كل من يرد على العلماء الرسميين أو المحسوبين على السلطة هو العالم الرباني ، وارتبط التدين في أذهان كثير من الشباب بالتشدد ، فكلما تشدد المقتحمون والدخلاء على عالم الدعوة في فتواهم كلما التف الشباب حولهم ، مع أن كل ذلك مخالف للمنهج السمح لديننا الحنيف ، فالفقه عند أهل العلم به ، هو التيسير بدليل ، ولم يقل أحد من أهل العلم والفقه لا في القديم ولا في الحديث إن الفقه هو التشدد ، لأن الله (عز وجل) يقول: " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " (البقرة : ١٨٥) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا " ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إن الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه"، وما خير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ولا قطيعة رحم ، فتبعية الدعوة للسلطة تنفر الناس من العلماء المقربين من السلطة ، ثم ينسحب هذا النفور إلى السلطة نفسها .

وأما النمط الثاني: فهو نمط الصدام بين الدعوة والسلطة، وقد يكون ذلك في بعض الأحيان من باب اصطناع البطولات الوهمية ، أو ناتجًا عن سوء تقدير للمصالح الشرعية أو الوطنية ، أو سوء تقدير من السلطة

الحاكمة للمؤسسة الدينية ولدورها الهام أو تهميشها لها ، ظنا خاطئا بأن تجفيف منابع الإرهاب تعني تجفيف منابع التدين.

وقد يسهم عدم التواصل الفعال والدائم بين الدعوة والسلطة في إحداث لون من الجفاء ، يتبعه نقد خفي ، فظاهر ، فجلي ، فحاد ، فصدام لا يستفيد منه سوى أعداء الدين والوطن.

النمط الأمثل:

أما النمط الأمثل الذي نسعى إليه ونعمل على تحقيقه لمصلحة الوطن لا لشيء آخر ، فهو علاقة التواصل والتفاهم والتعاون والاحترام المتبادل بين الدعوة والسلطة ، وهو ما أرى أنه يتحقق في أسمى معانيه وأعلاها رقيا في علاقة الأزهر والأوقاف ودار الإفتاء بجميع مؤسسات الدولة ، وفي مقدمتها رئاسة الجمهورية ، ومجلس الوزراء ، والمؤسسة العسكرية ، والمؤسسة الشرطية ، وسائر الوزارات وأجهزة الدولة ، ففي الوقت الذي تكنّ هذه المؤسسات كل التقدير للأزهر وعلمائه وشيخه فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أ.د/ أحمد الطيب ، وكذلك للكنيسة وقياداتها الروحية الوطنية وفي مقدمتهم البابا تواضروس الثاني بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية ، فإن هذه المؤسسات تعي دورها الوطني ، وتكنّ للسلطة القائمة كل

تقدير واحترام ، وتقدر لها جهودها في خدمة الوطن ، والحفاظ على هوية الدولة المصرية وعلى تماسكها وصمودها في وجه التحديات لهذه المرحلة الحاسمة الفارقة شديدة الحساسية في تاريخ مصر.

الدعوة للدعوة والدعوة للسلطة:

أما الجانب الآخر الذي ينبغي أن يكون محل اعتبار فهو هل الدعوة للدعوة ذاتها ، قصد الإصلاح الشرعي والأخلاقي والاجتماعي والتربوي ، أو أنها وسيلة للوصول إلى السلطة لدى بعض الجماعات العاملة في حقلها أو الأحزاب التي تتزيا بزيها وتتستر بغطائها كمجرد وسيلة لكسب العقول والأصوات الانتخابية ؟

والذي أؤكد عليه في هذا المجال أن الدعوة القادرة على الإصلاح الحقيقي هي الدعوة الخالصة المجردة التي لا تعمل لأجل الوصول إلى السلطة ، ولا توظف الدعوة توظيفا نفعيا حزبيا ، أو مذهبيا ، أو فئويا ، أو طائفيا ، أو لأي مصالح شخصية ، حيث يعمل الدعاة للإصلاح لوجه الله تعالى وللمصالح العليا للوطن دون أي تطلعات أخرى ، فهي لا تسعى إلى الحكم ، وإنما تسعى إلى إصلاح حال الحاكم والمحكوم من خلال النصيحة بالحكمة والموعظة الحسنة لأئمة المسلمين ولعامتهم ولجميع أبناء الوطن الشرفاء ، تدرك أن ما عليها إلا الأخذ بالأسباب أما النتائج فأمرها إلى الله وحده ، حيث يقول الحق سبحانه: " إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ

أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ " (القصص:٥٦) ، وقوله تعالى لنبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ " (الشورى:٤٨) .

أما من يستخدمون مجال الدعوة وسيلة للوصول إلى السلطة فهؤلاء يجنون على الدعوة أكثر من جنايتهم على السلطة ، حيث ينحرفون بالدعوة عن مسارها الصحيح ، وقد يضطرون إلى توجيه بعض النصوص لما يخدم أفكارهم السياسية ، أو إلى تبدل مواقفهم الشرعية والدعوية تبعا لتغير مواقفهم السياسية ، مما يجعل تصرفاتهم عبئا ثقيلا على الدعوة والدعاة ، ينفّر تنفيرًا كبيرًا من الدين والمتدينين ، ويجعل التصرفات الخاطئة لهؤلاء محمولة ومحسوبة على الدين نفسه في نظر العامة على أقل تقدير.

ومن هنا أؤكد أننا لابد أن نكون دعاة بسلوكنا وأخلاقنا ، وأن نكون قدوة بأفعالنا وتصرفاتنا ، لأن الناس ضاقت ذرعا من الانفصام الذي رأوه بين الأقوال والأفعال لدى بعض من ينتسبون إلى مجال الدعوة والدعاة وهي منهم براء.

* * *

الأزهر سلطة أم قيمة

الأزهر الشريف ليس سلطة ، ولن يكون ، ولا يريد ، ومن أهم الدلائل العملية على ذلك هو أن الأزهر الشريف برؤية حكيمة لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر رفض أن يكون المرجعية في القضايا التشريعية أو أن يكون رأي هيئة كبار العلماء ملزمًا ، بل أصّر أن يكون اختياريًا، بحيث يضع الأزهر الشريف خبراته الشرعية والعلمية تحت نظر الأمة أو المشرع متى طلب منه ذلك ، وكان هذا الرأي غاية في الحكمة حتى لا يتهم الأزهر بكهنوتية هو منها براء ، أو بمحاولة التسلق إلى سلطة هو لا يطلبها ولا يسعى إليها ، إيمانًا منه بأن رسالته دعوية ، وأنه يسير في ضوء الفهم الصحيح لتوجيهات القرآن الكريم: " ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحسنة " (النحل:١٢٥) ، " إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ " (الشورى:٤٨) ، " أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِين " (يونس:٩٩) .

فإننا نفرق بوضوح بين دور الدعاة ودور القضاة ودور الولاة، ونؤمن بأننا دعاة لا قضاة ولا ولاة ، فدور الدعاة هو التوجيه والنصح والإرشاد ، لا أن يكونوا سلطة فوق السلطات ولا سلطة موازية لها ، فنحن نؤمن بالولاية العامة لولي الأمر على المستوى الشرعي ، وباحترام القانون

والدستور على المستوى القانوني ، وأن سلطة رئيس الدولة هي السلطة الأعلى ، في ضوء النظم القانونية التي يُرسخها ويؤصلها الدستور ، وأن هذه السلطة الأعلى أو صاحب الولاية العامة له أن ينيب عنه في بعض السلطات أو الولايات ما تقوم به مصالح البلاد والعباد ، كالولاية على الجند لوزير الدفاع قائد الجند ، والولاية على الشرطة لصاحب الشرطة وزير الداخلية ، والولاية على القضاء لقاضي القضاة وزير العدل، وهكذا سائر الولايات الخاصة .

كما نود أن نبين أن العلاقة بين الدعوة والسلطة قد سارت عبر منحنيات التاريخ وانعطافاته في الغالب الأعم في أحد مسارين : إما مسار التبعية وإما مسار الصدام والمواجهة ، وكلاهما لا في صالح الدعوة ولا في صالح السلطة ، أما النمط الأمثل للعلاقة بين الدعوة والسلطة فهو علاقة التواصل والتفاهم والتعاون والاحترام المتبادل ، وهو ما نسعى إلى ترسيخه ، ونعتز بتحقيقه على أرض الواقع ، ففي الوقت الذي تكن فيه مؤسسات الحكم الرشيد بمصر كل التقدير للمؤسسة الدينية وتقدر دورها الوطني ، فإن الأزهر الشريف بكل مؤسساته يعي واجبه الوطني ، ويكن للسلطة القائمة كل تقدير واحترام ، ويقدر لها جهودها في خدمة الوطن ، والحفاظ على هوية الدولة المصرية وعلى

تماسكها وصمودها في وجه التحديات لهذه المرحلة الحاسمة الفارقة شديدة الحساسية في تاريخ مصر.

ومع إيماننا بأن الأزهر الشريف ليس سلطة فإننا نؤمن كل الإيمان بأنه قيمة وقامة ، أنه ارتبط بمصر وارتبطت به ، فلا تكاد مصر تذكر في مكان إلا ذكر أزهرها الشريف ، ولا يكاد الأزهر يذكر إلا مرتبطًا بمشيخته ومقره وحاضنته القوية مصر القلب النابض للعروبة والإسلام ، وإذا كانت مصر درع الأمة وسيفها وصمام أمانها ، فإن الأزهر الشريف يُعد أهم مؤسسة فكرية علمية في تاريخ البشرية في العلم الشرعي وتبني المنهج الوسطي السمح الذي تلقته الأمة بل العالم كله بالتقدير والقبول في إجماع أو شبه إجماع لم تحظ به مؤسسة علمية أو ثقافية أخرى ، وهو أحد أهم أدوات القوة الناعمة الداعمة لسياسة مصر الخارجية، وهو الجهة الوحيدة التي كانت وما زالت قادرة على رفع الغطاء الأدبي والشرعي عن الأعمال الإجرامية التي يقوم بها أعداء الدين والإنسانية داخل مصر وخارجها.

ومع إيماننا بالنقد الموضوعي الذي يعتمد المنهج العلمي بعيدًا عن العمل على إثارة العواطف ، أو حب الظهور الإعلامي ، أو الاعتماد على أساليب التطاول وتوجيه الاتهامات غير المنضبطة.

ومع إيماننا أيضًا بالنقد الذاتي، وهو أن تقوم كل مؤسسة بإعادة تقييم أمورها ، وإعادة النظر في مناهجها وأدواتها ، وهو ما يقوم به الأزهر الشريف في لجان إصلاح التعليم ومراجعة المناهج الدراسية ، الأمر الذي يرعاه فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بنفسه ، وهو مهتم به غاية الاهتمام.

لكننا مع إيماننا بالنقد الموضوعي ، وبالنقد الذاتي، الذي تقوم به المؤسسة فإننا نؤكد أن أساليب الهجوم غير المنضبط وغير المبرر على المؤسسة الدينية التي يعد الأزهر الشريف عمادها وقوامها الرئيسي ، لا تراعي المصلحة الوطنية التي ينبغي أن تجمع ولا تفرق ، بل ربما أرسل بعض هذا النقد رسائل سلبية قد تخدم الإرهابيين والمتطرفين والمتشددين ، وتفتح مجالاً من الصراع الفكري والثقافي وربما الأيديولوجي بما لا تحتمله تلك الظروف الصعبة التي يمر بها وطننا ، وتلك التحديات التي تلم بنا في الداخل وتحيط بنا في الخارج ، من خلال تبني أفكار متطرفة يغذيها الفكر الاستعماري والقوى الاستعمارية، ولا أرى أحدًا قادرًا على كشف زيفها ، وتعريتها ، وتفنيد أفكارها ، ورفع الغطاء الأدبي عن مشروعها سوى الأزهر الشريف ، الذي يُعد المرجعية الأولى للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

* * *

المعادلة الصعبة خطوط حمراء بلا إقصاء

لاشك أن الظروف التي مرت بها مصر ، ومازالت تبعاتها وأحداثها تتوالى تفرض كثيرا من المعادلات الصعبة التي تتطلب التعامل معها بحكمة عالية من منطلقات شرعية ووطنية ورؤية عصرية شاملة تراعي كافة المستجدات والمتغيرات على أرض الواقع.

وبما أن وزارة الأوقاف جزء لا يتجزأ من النسيج الوطني، وقد أعلنت بوضوح أنها وزارة دعوية وطنية ، وأنها قد حددت بوضوح أهدافها ، سواء في ضبط الخطاب الديني وحمايته من الدخلاء وغير المتخصصين ، أم في خدمة القضايا الوطنية والإسهام والدعم لكل المشروعات الاقتصادية الكبري ، التي لا تحقق مصالح البلاد والعباد إلا بإقامتها ، إذ ندرك أن صحيح الشرع لا يتناقض مع صحيح العقل ، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ، فقد قامت الشرائع السماوية علي التيسير ورفع الحرج ومراعاة مصالح الخلق وصيانتها ، مع صيانة الدين والنفس والمال والعقل والعرض ، وهو ما يعرف بالكليات الخمس.

وإننا لنؤكد ابتداء أننا لا يمكن أن نتخذ من الإقصاء مسلكا لأحد من أبناء المجتمع المصري ، ما لم يكن هناك حكم قضائي بإقصائه أو تجريمه ، أو يثبت بالبرهان القاطع

ارتكابه لأعمال إرهابية أو إجرامية أو تخريبية أو مشاركة في العنف أو تحريض عليه ، وإنما نتعامل بموضوعية في ضوء الضوابط واللوائح والقوانين المنظمة لعملنا وما تقتضيه المصلحة الشرعية والوطنية معا ، وأكبر دليل على ذلك أننا لم نقص أي إمام أو خطيب من الأوقاف لمجرد انتمائه الحزبي أو الفكري أو السياسي ، وإنما نتعامل بموضوعية تامة مع مدى استجابته والتزامه بضوابط عمله الوظيفي وتوجيهات الوزارة فيما يتصل بضبط الخطاب الديني من أهمية الحفاظ على المنبر ، وعدم تركه لأحد أيا ما كان وضعه، ما لم يأته كتاب رسمي من إدارة الأوقاف التابع لها بذلك ، وفي ضوء التصاريح الصادرة لمن تنطبق عليهم شروط الخطابة ، مع الالتزام بموضوع الخطبة الموحد ، وزمن الخطبة ، وعدم توظيف المنبر سياسيا أو حزبيا أو طائفيا أو مذهبيا ، فمن التزم بذلك تابعنا عمله متابعة دورية بدقة ، فالثقة في الإدارة لا تعني عدم المتابعة ، والمتابعة لا تعني عدم الثقة ، ولسنا مكلفين بعد ذلك بالتنقيب عن القلوب أو حياة الناس الخاصة ، ومن لم يلتزم كان التعامل معه في ضوء القانون.

غير أنني أؤكد على أن الخطابة ليست حقا مكتسبا بمجرد الحصول على الشهادة حتي لو كانت أزهرية ، فهناك وزارة تنوب عن السلطة القائمة في الإشراف علي المساجد، وضبط شئون الخطاب الديني ، فالإمام أو الخطيب نائب عن الإمام أو من ينيبه الإمام في إقامة الجمعة.

فكما أن الشأن في القضاء أنه ليس شرطا لكل من يحصل علي ليسانس حقوق أن يكون قاضيا ، أو كل من يحصل علي بكالوريس تجارة أن يكون مفتش تموين أو جمارك ، ولا كل من أراد التطوع للقوات المسلحة أن يكون جنديا ، أو التطوع للعمل بالشرطة أن يكون شرطيا ، فلكل وزارة أو جهة أو هيئة حساباتها في قبول أعضائها أو منح تراخيص العمل لهم ، وليس دين الله أهون من أمور الدنيا، حتى يفرض بعض الناس أنفسهم فرضا على المؤسسة لتقبلهم رغما عنها ، وإلا لم تكن هناك دولة ولا قانون ولا نظام محكم.

ومع ذلك فإننا سنتيح الفرصة لكل من تنطبق عليه الشروط أن يتقدم للامتحانات التحريرية والشفوية التي تجعلنا نطمئن إلى من يسند إليه العمل ، وستظل متابعتنا للجميع مستمرة لا تنقطع، ويكون التصريح بالعمل مرتبطا بمدى الالتزام الكامل بتعليمات وتوجيهات الوزارة التنظيمية التي لا يمكن أن تصطدم بصحيح الشرع أو تمس ثوابته أو تعطل شيئا منه ، فمهمتنا الأساسية الحفاظ على الثوابت ، والدفاع عنها ، ومحاربة كل ألوان التطرف والغلو والتسيب والانحلال دون إفراط أو تفريط أو غلو أو تقصير. وفي هذا الشأن نؤكد أن وزارة الأوقاف ليست خصما مع أحد، أو أنها تضع لوائحها لإقصاء أحد بعينه ، ولكنها مفوضة

من السلطة المختصة في القيام على أمر الدعوة والخطابة بمساجد مصر ، وهي أمينة على ذلك كل الأمانة ، وستحافظ عليها دون أي ضعف أو تهاون أو خضوع لأي لون من ألوان الضغوط مهما كانت شدتها أو من يقف وراءها ، فالقضية قضية وطن وكيان دولة ولا أحد فوق الدولة أو القانون ، أما من يحاول أن يفرض نفسه قسرًا علي نظام الدولة ، محتميا بالأنصار والأتباع ، فهذا خطر داهم على المجتمع وعلي أمن الوطن واستقراره ، ولا يمكن أن نسمح به أو نخضع له ما بقي لنا في تحمل الأمانة والمسئولية يوم واحد ، وما بقي فينا نفس يلفظ، وسنظل على هذه المبادئ أينما كنا ، وإن كانت السياسة العامة وأمانة المسئولية تفرض علينا العمل على جمع الشمل ما دام ذلك في خدمة المصلحة العليا للوطن.

* * *

نحـــو مجتمع آمـــن مستـــقر

لا شك أن الأمن والأمان من أهم دعائم المجتمعات ووسائل استقرارها وإن شئت فقل : إنه أهمها ، فلا استقرار بلا أمن ، ولا اقتصاد بلا أمن ، ولا نهضة ولا رقي ، ولا تقدم ولا ازدهار بلا أمن.

وقد دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام لمستقر ولده إسماعيل وزوجه هاجر (عليهم جميعًا السلام) أول ما دعا بالأمن والأمان ، فقال عليه السلام كما أخبر النص القرآني على لسانه : " رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ " (البقرة :١٢٦) ، فدعا للمكان أن يكون بلدًا وأن يكون آمنًا وأن يرزق أهله من الثمرات حتى يحقق لهم الأمن الغذائي والنفسي إلى جانب الأمن العام ، فلما صار المكان بلدًا كرر (إبراهيم عليه السلام) الدعوة له بالأمن والأمان فقال : " رَبِّ اجْعَلْ هذَا الَبلدَ آمِنًا " (إبراهيم : ٣٥) ، ويقول الحق سبحانه وتعالى مذكرًا بنعمه على أهل مكة : " أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا " (القصص : ٥٧) ، وقال سبحانه وتعالى: " لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" (سورة قريش) ، ولأهمية هذا الأمن أقسم به الحق سبحانه وتعالى فقال : " "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ

سِنِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ " (التين: ١-٣) ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " من أصبح منكم آمنًا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها " (أخرجه الترمذي) .

واعتبر الإسلام حرص الإنسان على توفير الأمن للآخرين ووفائه بذلك شرطًا من شروط الإيمان على اختلاف أقوال الفقهاء وشراح الحديث بين كونه شرط صحة أو شرط كمال، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " المؤمن من أمنه الناس على أموالهم " (أخرجه ابن ماجه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قالوا : من يا رسول الله ؟ فقال (صلى الله عليه وسلم) : من لا يأمن جاره بوائقه " (أخرجه البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " (متفق عليه) ، ويقول الحق سبحانه وتعالى: " الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ " (الأنعام : ٨٢) .

وقد أشار الحق سبحانه إلى تحقيق الأمن والأمان لمصر وأهلها ، فقال سبحانه على لسان يوسف عليه السلام : "ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّه آمِنِينَ " (يوسف : ٩٩) ، على أن النعم إنما تدوم بالشكر والمحافظة عليها.

ومن وسائل المحافظة على نعمة الأمن والاستقرار:

١ – تحقيق العدل بين جميع أبناء الوطن ، فإن الله عز وجل ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا ينصر الأمة الظالمة ولو كانت مسلمة ، والمقصود بالعدل هو تحقيق العدل في جميع جوانبه من العدل في الحكم ، إلى العدل في القول، إلى العدل في القسمة، إلى العدل في توزيع ثروات الوطن، إلى العدل في الحصول على فرص العمل ، إلى العدل في تكافؤ الفرص في الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية ، فلما جاء رسول كسرى إلى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ووجده نائمًا مطمئنًا تحت ظل شجرة قال كلماته الشهيرة : " حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر " ، ولما كتب أحد الولاة إلى سيدنا عمر بن الخطاب: أن اللصوص قد كثروا في مدينته فكتب إليه سيدنا عمر (رضي الله عنه) أن حصنها بالعدل.

٢–تطبيق القانون بحسم على الصغير والكبير دون أي تردد أو مجاملة أو محسوبية ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الْوَضِيعُ قَطَعُوهُ " ، ولما جاء أسامة بن زيد يشفع في حد من حدود الله قال له النبي (صلى الله عليه وسلم) مستنكرًا : " أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول : " والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " (متفق عليه).

ومن هنا شرع الإسلام من الأحكام ما يحافظ على النفس والمال والعرض ، فشرع القصاص لحفظ النفس ، وحد السرقة لحفظ المال ، وحد الزنا وحد القذف لحفظ العرض ، وحد الحرابة للمفسدين في الأرض ، فقال سبحانه : " إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (المائدة: ٣٣).

٣- التكافل والتراحم بين جميع أبناء المجتمع.

فمجتمع لا تراحم فيه لا يمكن أن يكون آمنًا ، فنحن في سفينة واحدة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا " (أخرجه البخاري).

ومن هنا تأتي أهمية العناية بتطوير العشوائيات وتحسين الظروف المعيشية لساكنيها ، وتوفير الحاجات الأساسية لجميع أبناء المجتمع ، ذلك أننا عندما نوفر الحد الأدنى من الحياة الكريمة للأكثر فقرًا واحتياجًا ، فإننا نوفر الأمن

والأمان للأسر الأكثر ثراءً ولساكني المناطق الراقية ، فعندما سأل سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أحد ولاته ماذا تصنع إذا جاءك سارق ؟ قال الوالي : أقطع يده ، فقال سيدنا عمر (رضي الله عنه) : " فإن جاءني جائع قطعت يدك أنت " ، فقبل أن تقطع يد السارق عليك أن توفر له قوت يومه ولو في حده الأدنى ، وهو ما نؤمل تحقيقه من خلال إنشاء منظومة الأمان الاجتماعي التي نسعى جميعًا جادين لتحقيقها في القريب العاجل.

٤- التربية الإيمانية الصحيحة التي تقوم على الثقة في الله عز وجل ، وبيان أن ما كان للإنسان فسوف يأتيه ، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها ، لقول النبي (صلى الله عليه وسلم : " إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ، و تستوعب رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته " ، مع التأسي بحياة النبي (صلى الله عليه وسلم) وحياة أزواجه وأصحابه وتابعيه الذين لم تكن الدنيا أكبر همهم ، ولم تأخذ من حياتهم فوق ما تَقومُ به أسس هذه الحياة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : « مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»

(أخرجه الترمذي وغيره) ، فليس لك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ، ومن هنا دعا الإسلام إلى البعد عن كل مظاهر الترف والإسراف والتبذير ، ودعا إلى التراحم والتكامل وتحقيق الأمن المجتمعي لكل أبناء المجتمع ، وقد قال الإمام علي (رضي الله عنه) : " ما جاع فقير إلا بشح غني ، فإن وجدت فقيرًا جائعًا فاعلم أن هناك غنيًا ظالمًا لا يتقي الله في ماله ، ولا يعرف له فيه حقه " .

٥- التعاون المجتمعي في كشف المفسدين والمخربين والضرب على أيديهم بيد من حديد ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا ، أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ تَحْجُزُهُ ، أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ" (أخرجه البخاري) .

وهنا نؤكد أن الإسلام قد نهى عن كل ألوان الإفساد في الأرض ، فالإفساد والاعتداء على الممتلكات العامة والخاصة أو تعطيل الطرق أو الدعوة إلى تعطيل مسيرة الحياة وكل ما يضر مصالح الوطن مما لا يقره دين ولا خلق ولا عقل سليم ، ويجب على المجتمع أن يقف صفًا واحدًا في مواجهة هذا الفساد ، مع تأكيدنا أن الدولة المصرية تتعرض لمحاولات إسقاط فاشلة عبر إنهاك جيشها وشرطتها

بمخططات ودعاوى خبيثة مشئومة ، فعلى الجميع أن يتنبه لذلك ، وأن يقف صفًا واحدًا في كل وجوه وألوان الفساد والإفساد في الأرض ، كلٌ يؤدي دوره من باب قول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ " (أخرجه الإمام مسلم) .

*　　*　　*

مصر التي لم تكتشف بعد

لقد اكتشفنا بلا شك الكثير من الآثار والمعالم الحضارية المصرية عبر تاريخها وحضارتها التي تضرب لأكثر من سبعة آلاف عام في أعماق التاريخ البشري .

وعلى الرغم من هذه الاكتشافات الأثرية المهمة فإن اكتشاف أبعادها العلمية والحضارية والإنسانية مازالت في حاجة إلي مزيد من البحث من جهة ، وإلى تقريب ما تنضوي عليه هذه الحضارة من كنوز وأسرار إلى الناشئة والشباب من جهة أخرى ، فلا شك أن ذلك كله يؤدي إلى تعميق الحس الوطني ، وزيادة الإحساس بالانتماء والولاء للوطن.

إن التراكم الحضاري للثقافة المصرية بكل أبعادها العلمية والمعمارية والفنية والتشكيلية ، والتاريخية قد بهر العالم كله، وكان مثار إعجاب العلماء والباحثين ومقصد السائحين من كل أرجاء العالم ، أملا في التعرف علي أبعاد هذه الحضارة من جهة ، وعملا على الإفادة من معطياتها من جهة أخرى، بل لم يستطيعوا إنكار الأبعاد العلمية والإنسانية والأخلاقية والروحية لحضارة الإنسان المصري ، فقد صارت مفردات هذه الحضارة تغذي كثيرا من الروافد العلمية في مجالات متعددة.

أما مصر التي لم تكتشف أبعادها بعد ، أو لم نحسن استغلال مواردها بعد ، فهي كثيرة ، فما زلنا في حاجة إلى مسح جغرافي وجولوجي شامل لخريطة مصر الجغرافية في ضوء دراسة تنموية شاملة ، تعيد قراءة هذه الخريطة تعدينيا ، وزراعيا ، وسياحيا ، فما زالت الثروات الضخمة لم تستغل بعد، أو لم تستغل الاستغلال الأمثل على أقل تقدير.

وفي عدة زيارات لأسوان ، والوادي الجديد ، والبحر الأحمر ، وسيناء ، تأكد لي أن بلدنا مازال عامرا بالخيرات ، ففي أسوان من المعالم السياحية ما يؤهلها لأن تكون في مقدمة المدن العالمية لو طورنا من بنيتها التحتية، وأعدنا النظر في الإفادة القصوى من هذه المعالم وتوظيفها توظيفا متميزا كمعالم حضارية وثقافية واستعنا في ذلك بمرشدين سياحيين متخصصين ومثقفين لديهم من الحس الوطني الكافي ما يجعل المصلحة العليا للوطن فوق أي اعتبار آخر.

وفي سيناء أرى أننا في حاجة إلى تنمية بشرية ، وتهيئة المناخ المناسب للجذب السكاني ، بحيث نزرع سيناء ونعمرها بالبشر ، مع تسليط الضوء علي ما بها من مقومات سياحية ، بعضها علاجي ، وبعضها طبيعي ، وبعضها ثقافي ، كما أنها لم تكتشف بعد تعدينيا ، مع ضرورة وضع خريطة واضحة للمناطق القابلة للزراعة والاستصلاح بها .

وفي الـوادي الجديـد بمسـاحته المترامية الأطـراف ، وامتداده الطبيعي في الواحات البحرية بمحافظة الجيزة ما يسـمح بإقامـة دولـة كـبرى لا مجـرد مجتمعـات إنتاجيـة أو عمرانيـة ، وفي البحـر الأحمر تجري دراسـة مهمـة حـول مـايعرف بالمثلـث الـذهبي القصـير (سـفاجا ، قفـط ، قنـا) لاستغلال مـا فيـه مـن ثـروات تعدينيـة تهيئ لنهضـة كـبري في مجال التعدين مع أراض خصبة قابلة للزراعة ، ولا ينبغي أن ننسـى أن مدينـة الغردقـة تصنف كأجمـل مدينـة شاطئية في العالم ، إضافة إلى محور قناة السويس الذي تعمل الدولة بجديـة علـى تنميتـه تنميـة شـاملة تـدر المليـارات لـو أحسـنا التخطيط والعمل، بل إنك لو نقبت في الكثير من محافظات مصر وفي الظهير الصحراوي لتأكد لك أننا لم نعط هذا البلد ما يجب أن نقوم به ، فهو مؤهل لأن ينطلق هـو بنا لـو أننا استطعنا أن نتجاوز المرحلة الانتقالية إلي مرحلة الاستقرار ، ولن يكون ذلك إلا بأن يقف الشعب كله وقفة رجل واحـد في مواجهـة الإرهـابيين ، والانتحـاريين ، والمخـربين ، والمدمرين، والمفسدين في الأرض .

أما البعد الغائب الحاضر الذي نكتشف علـى مر الـزمن الكثير من جوانبه فهو الطبيعة الحضارية الصلبة معا للشعب المصـري ، ففـي وقـت الشـدائد والأزمـات تظهـر المعـادن الأصيلة لأبناء هذا الشعب ، ففي مجال الأمن هناك واجب وطـني تقـوم بـه قواتنـا المسـلحة وأبنـاء وزارة الداخليـة ،

يضحون بدمائهم في سبيل وطنهم ، وهو ما يحتمه عليهم الواجب الوطني ، غير أن هذا الواجب يحتم علينا أيضا ألا نتركهم وسبيلهم في مواجهة المخاطر وحدهم ، بل علينا أن نكون إلى جانبهم مؤازرين ومعضدين ، والأهم من ذلك أن يؤدي كل واحد منا دوره ، إذ لايمكن لأي جهاز وطني مهما كان حجمه وهمته وقوته ووطنيته أن ينهض مستقلا بأعباء بلد كامل حتى لو حاول ، إنما تنهض الأمم وترقى بمجموع ما يبذل من جهود المخلصين من أبنائها.

* * *

مصر التي نريدها

مصر التي نريدها هي مصر التي يشعر فيها كل مواطن بأمنه الاجتماعي ، والاقتصادي ، والنفسي ، مصر الرائدة في أمتها العربية ، وأمتها الإسلامية ، وفي محيطها الإقليمي ، هي مصر المؤثرة في صنع السياسات التي يحسب لها حسابها في المنتديات والمحافل الدولية ، هي مصر التي تمد يد العون لعمقها الإفريقي ، وتكون صمام أمان لعمقها العربى ، هي التي تكون معقد الأمل لشبابها ، مصر الوسطية والاعتدال ، مصر السماحة ، مصر الحضارة ، مصر العدالة ، مصر الحرية المنضبطة وضوابط القانون بضوابط الإيمان بالله (عزّ وجلّ) ، وضوابط المصلحة العليا للوطن ، مصر العمل والإنتاج ، مصر الإرادة السياسية الصلبة القوية المستقلة غير التابعة في قرارها السياسي لأي جهة ، سوى ما تمليه عليها مصلحة أبنائها ، ومصلحة أمنها القومي ، ومصلحة أمتها العربية ، وحتى نصل إلى هذه الآمال التي نسعى إليها ينبغي أن نقوم بخطوات عملية سريعة وغير نمطية ولا تقليدية على أرض الواقع ، من أهمها:

١- ثورة في العمل والإنتاج : فالأمم التي لا تملك قوتها وغذاءها ودواءها وسلاحها لا تملك كلمتها ولا استقلال قرارها السياسي ، فأي إصلاح سياسي أو اجتماعي لابد له

من قوة اقتصادية تسانده بقوة ، كما أن بناء الأمن القومي، وأمن الوطن داخليًا وخارجيًا ، يحتاج إلى موارد اقتصادية في عالم لا يعرف العواطف ، وإنما تحكمه في الغالب الأعم المصالح والمكاسب ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بمزيد من الجهد والعرق ، والعمل والإنتاج ، وعلينا أن نأخذ بأقصى الأسباب المتاحة ، وأن يبذل كل منا أقصى جهده لإتقان عمله وأدائه على الوجه الأكمل ، فإننا لفي حاجة ملحة إلى جهود كبيرة وعاجلة في ترسيخ ثقافة العمل وأهميته للفرد والمجتمع.

٢- ثورة إدارية : وحتى نصحح منظومة العمل فلابد من ضوابط حازمة تُعين الأفراد على إصلاح أوضاعهم وتصحيح مسارهم العملي ، ولن يكون ذلك إلا بأمور منها تفعيل مبدأ الثواب والعقاب ، وأن تكون الأجور والمكافآت والحوافز مرتبطة بالإنجاز والإنتاج وتحقيق الأرباح ، إضافة إلى تمكين الكفاءات الوطنية ، وتقديم الكفاءة على أي ولاءات أيّا كان نوع هذه الولاءات ، وهذا مبدأ شرعي ووطني ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " مَنِ اسْتَعْمَلَ عَامِلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنّ فِيهِمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ وَأَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنّةِ نَبِيّهِ ، فَقَدْ خَانَ اللهَ ، وَرَسُولَهُ ، وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ" ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " من ولّى من أمر المسلمين شيئا

فولّى رجلا وهو يجد أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين " (أخرجه الحاكم في المستدرك) .

ثورة في الأخلاق : لا يمكن لأي حضارة أن تُبنَى بلا أخلاق ، وأي حضارة تقوم بعيدًا عن الأخلاق تحمل عوامل سقوطها قبل قيامها ، ومآلها إلى الزوال والاندثار ، فالأخلاق ليست رفاهية ، وإنما هي صمام أمان الأمم والمجتمعات، فالصدق ، والأمانة، والوفاء ، والتكافل ، واحترام الآخر ، وسائر الأخلاق لا غنى عنها لأي أمة أو مجتمع ، وهي من القيم التي أجمعت عليها سائر الشرائع السماوية ، فلم تنسخ في أي ملة من الملل أو دين من الأديان ، ولذا لخص نبينا (صلى الله عليه وسلم) هدف رسالته فقال : " إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ " (أخرجه مالك في الموطأ) ، فمع أهمية العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج لم يقل (صلى الله عليه وسلم) : " بُعثت لأُعلّم الناس الصلاة أو الصيام أو الحج على أهمية ذلك في حياة المسلم ، إنما ركز (صلى الله عليه وسل) على عنصر الأخلاق ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا " (أخرجه الترمذي) ، ويقول الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

٤- العدالة الكاملة : فلا شك أن العدل ميزان الملك ، وأن الله (عزّ وجلّ) ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا ينصر الأمة الظالمة ولوكانت مؤمنة . وقد كتب أحد الولاة إلى سيدنا عمر بن الخطاب أن اللصوص قد كثروا في المدينة، فكتب إليه سيدنا عمر (رضي الله عنه) : أن حصّنها بالعدل ، وعندما جاء رسول كسرى ملك فارس إلى سيدنا عمر (رضي الله عنه) ووجده نائمًا آمنًا تحت ظل شجرة ، قال قولته المشهورة : حكمت فعدلت فآمنت فنمت يا عمر .

ومن أهم ألوان العدل العدالة الاجتماعية الحقيقية التي تعنى بالفقراء والمحتاجين والمهمّشين ، فتراعي الطبقات الأقل دخلا والأكثر احتياجًا، وليس العدالة فقط في توفير الدعم المادي والعيني أو النقدي ، وإنما تكون العدالة في الحصول على فرص متكافئة في التعليم ، والتوظيف ، والصحة ، والعمل على توفير بنية أساسية قوية في المرافق العامة من الطرق والكباري والكهرباء والصرف الصحي مع عدالة التوزيع الجغرافي في هذه الخدمات ، وهو ما نُؤمّل أن نراه واقعًا ملموسًا على أرض الواقع.

* * *

يقولون : ما أتى على أصله لايسأل عن علته ، وما خرج عن الأصل هو ما يسأل فيه عن العلة ، فالأصل في العلاقات بين مصر وأشقائها من الدول العربية هي علاقة الوحدة والتكامل والتضامن والتعاون والتنسيق المستمر فمصر في أمتها العربية هي بمثابة القلب النابض ، وإذا كان هذا التعاون مطلوبًا على كل حال وفي جميع الأوقات فإنه في هذه المرحلة يعد أمرًا حتميًا لا محيص عنه نظرًا للمصير المشترك الذي يجمع بيننا جميعًا ، فعوامل الدين ، واللغة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والمصالح المشتركة ، ومواجهة المخاطر والتحديات ، تحتم التكامل بل وحدة الصف دون أي تردد أو تأخر ، وكل يوم نتأخره في ذلك نخسر جميعًا ، يقول الحق سبحانه : « وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (آل عمران : ١٠٣) ، ويقول سبحانه : « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » [الأنفال: ٤٦] .

ويقول شوقي:

نَصحتُ وَنَحنُ مُختَلِفونَ دارًا

وَلَكِـن كُلُّنا في الهَـمِّ شَـرقُ

وَيجمَعُنــا إذا اختَلَفَــت بِلادٌ

بَيــانٌ غَيــرُ مُختَلِفٍ وَنُطــقُ

وعلى أرض الواقع نرى الإحساس بضرورة هذه الوحدة بفرض نفسه على جميع دول المنطقة ، وربما لعقود عدة لم نلمس هذه الروح بتلك القوة ربما لأننا أمة تتوحد عند الخطر ، فهي أمة قد تمرض ولكنها لا تموت ، وقديمًا قلت: " لو أن أعداءنا استخدموا كل إمكاناتهم العسكرية والمخابراتية والمؤامراتية وسائر أسلحتهم من ذرّية ونووية وكيميائية وتقليدية وإرهابية وضربوا أمتنا ضربة رجل واحد لخرج من تحت أنقاضها من يقاومهم ويقضّ مضاجعهم، فأي صراع مهما كانت ضراوته لن يصل أبدًا إلى إبادة هذه الأمة أو القضاء عليها ، ولا بديل عن التواصل والحوار الحضاري على أسس الاحترام المتبادل بين الأمم والشعوب.

على أنني أؤكد أننا إن أوتينا – لا قدر الله – إنما نؤتى من قبل تفرقنا وتشرذمنا واختلافنا فقد ذكر بعض المفسرين ورواة الحديث والأثر أنه لما نزل قول الله تعالى: " قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ" (الأنفال :٦٥) .

قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال : يا محمد إني إذا

قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً " (أخرجه مسلم).

وفي هذا ما يؤكد أن أهم سبب من أسباب ضعف هذه الأمة هو تفرقها واختلافها ، وهو ما حذر منه النبي (صلى الله عليه وسلم) حين قال في خطبة الوداع الجامعة: " لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض " (متفق عليه) .

إن هذه اللحمة العربية التي بدأت تتبلور بالعلاقة المتميزة التي تعي معنى المصيرالمشترك بين مصر والسعودية والإمارات والكويت والبحرين وسلطنة عمان مع دول عربية أخرى لهي خطوة كبيرة يمكن البناء عليها لوضع أسس الوحدة والتكامل والتنسيق والتعاون سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا وفكريًا ، على أن مجرد هذه الوحدة في حد ذاتها ستكون أحد أهم عوامل الردع للطامعين في خيرات منطقتنا ومن يعملون منهم على تفتيت وتمزيق كيانها وبنيانها وتهديد أمنها واستقرارها ، كما أن هذه الوحدة ستكون منطلقًا للتنمية الشاملة لكل دول المنطقة بما يعود بالنفع على أبنائها جميعًا ويحقق لهم متضامين مجتمعين مزيدًا من النهضة والرقي ، بما يرضى الله(عز وجل) ، ويحقق مصالح

البلاد والعباد ، ويرضي الصديق ويغيظ العدا ، ويرد كيد المتربصين بالأمة في نحورهم.

ولا يجب أن يقف الأمر عند جهود الرؤساء المحترمين جميعًا ، إنما ينبغي على سائر الأجهزة التنفيذية سرعة التحرك الثنائي والجماعي لتحقيق رغبة القيادة السياسية في كل دولة بوضع أُطُر عملية سريعة وقابلة للتطبيق كل في مجاله وميدانه في ضوء الأهداف الكبرى التي تسعى إلى تحقيق الوحدة المنشودة ، ولا سيما في مجالات التكامل الاقتصادي ، ومواجهة الإرهاب الذي يهدد الجميع دون تفرقة ، لأن هذا الإرهاب الأسود الغاشم الموجه ما لم يواجه باصطفاف عربي ووطني سريع فإن عواقبه ستكون وخيمة ، على أن الوقت لا يحتمل أى لون من ألوان التراخي ، فلننطلق متوكلين على الله (عز وجل) في كل ما يخدم ديننا وأمتنا وأوطاننا جميعًا على أساس من الوحدة والفهم الحقيقي لمعنى المصير المشترك .

* * *

الأسباب المنطقية لنجاح مصر

لا شك أن مصر تمتلك من مقومات النجاح ، وعوامل النهضة والرقي ، ما لا تملكه الكثير من الدول ، وإن إمكانية هذا النجاح قائمة بقوة ، وأكثر من أي وقت مضى ، فمصر تملك حضارة عريقة عمرها أكثر من سبعة آلاف عام ، لا تتوافر إلا لدول معدودة ومحدودة ، فأهرامها ، ومتاحفها ، وآثارها العظيمة ، شاهد عيان على أن العقلية المصرية كانت قادرة على إبداع حضارة تاريخية منقطعة النظير ، أبهرت وما زالت تبهر العالم كله.

وهي شامخة بمآذنها ، ومساجدها ، وكنائسها ، ووحدتها الوطنية الفريدة التي تعبر عن سماحة أهلها وطيب أخلاقهم، تلك الوحدة التي تجسدت عمليًا في اللحمة الوطنية بين أبناء الشعب الواحد ، والتي جمعت بين الأزهر والكنيسة في مظلة واحدة هي بيت العائلة ، التي جعلت قيادة الكنيسة تعبر في وطنية عظيمة بأن المسيحيين بخير مادام الأزهر بخير ، وما دامت مصر بخير ، ووقف رجالها سدًا حصينًا في أي محاولة للاختراق ، أو للتدخل الأجنبي تحت ذرائع معروفة ومكشوفة لقوى الاستعمار.

مصر بخير ما دام أزهرها بخير في ظل حفاوة وتقدير بالغ ، ما زال يلقاه علماء الأزهر أينما توجهوا ، وهو ما يمكن أن يكون دعماً كبيراً لقوة مصر الناعمة

وسياستها الخارجية ، وهو ما يلقي في الوقت نفسه بتبعة كبيرة على رجال الأزهر في أن يكونوا على مستوى التحديات ، وليس ذلك بعسير في ظل القيادة الحكيمة لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف.

مصر غنية بموقعها الجغرافي ومواردها الطبيعية التي لم تُكتشف بعد، سواء فيما يعرف بالمثلث الذهبي (القصير ـ سفاجا ـ قفط) أم بمشروع قناة السويس بأبعاده التنموية الشاملة ، أم بتنمية الساحل الشمالي ، أم باستغلال الموارد الطبيعية في سيناء ، وأخصها الرمال ذات الطبيعة الخاصة ، والسياحة : الدينية ، والعلاجية، والصحراوية ، والترفيهية.

مصر غنية بعقول علمائها المشهود لهم بالسبق والتفوق في أفضل جامعات العالم ومعاهده العلمية والبحثية.

مصر غنية بقيمها الحضارية والأخلاقية والإنسانية، ومروءة أبنائها وشهامتهم ، وصبرهم وجلدهم وكفاحهم ، وقوة تحملهم ، وقدرتهم على مواجهة الصعاب والتحديات ، فهي غنية برجالها ونسائها ، وشيوخها وشبابها ، ومفكريها ، ومثقفيها ، وإعلامييها ، وصناعها ، وعُمَّالها ، لا ينقصها فكر ولا عقل ، ولا سواعد قادرة على حمل الوطن والتقدم به إلى مصاف الأمم الراقية.

مصر غنية بسماحتها ووسطيتها وقدرتها على نفي الخبث عنها ، وقد استقت هذه الوسطية من حضارتين عظيمتين ، أولاهما: الحضارة الإسلامية السمحة التي لا تقر التشدد ولا التطرف ولا الغلو ، ولا العنت ، فهي قائمة على اليسر ورفع الحرج ؛ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: "يُرِيد اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُبِكُمُ الْعُسْرَ " (البقرة :١٨٤) ، ويقول سبحانه: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" (الحج : ٧٧) ، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "إن الدين يسر ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه" (أخرجه البخاري)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا " (متفق عليه).

والسماحة الأخرى استمدتها من الحضارة المصرية القديمة والحديثة معا ، فالشخصية المصرية لم تعرف عبر عصور تاريخها الممتد والعريق بالغلو أو التشدد أو التجاوز أو الاعتداء على الآخرين ، بل عرفت بالظرف والفكاهة وخفة الروح ، ومن مزيج هاتين الحضارتين العظيمتين أنتجت الحضارة المصرية حضارة خاصة ذات طبيعة خاصة تكاد تكون فريدة فى يسرها وسماحتها ، وهى فى حالة نقاء وإفراز دائم ونفى مستمر لكل ألوان التشدد والغلو ، فهى بطبيعتها وتكوينها لا تقبلهما ولا يمكنها التعايش مع أي منهما ، فهما بالنسبة لها كالجسم الغريب ، أو العضو المزروع قسراً فى جسد لا يمكن أن يتقبله.

وهناك نعمة كبرى حباها بها رب البلاد والعباد وهي نعمة الطبيعة الخلابة الرقراقة الصافية ، ففى الوقت الذى تنحت فيه بعض البلاد والحضارات الصخر فى ظل أجواء إما مشمسة محرقة ، وإما باردة قاسية أو جليدية يظل الثلج يغطيها كاملة لأسابيع أو شهور ، مما يتطلب جهدا غير طبيعى وعملا غير تقليدى للتغلب على تلك الأجواء ، حبا الله مصر بطبيعة سمحة سهلة تتلاقى مع أخلاق وطبائع سكانها السمحة السهلة ، فلا هى مفرطة فى صقيع شتائها ولا فى حر صيفها إذا ما قسنا ذلك ببلد قد تتجاوز درجة البرودة في شتائه أربعين درجة تحت الصفر ، وتتجاوز درجة حرارته صيفاً أربعين فوق الصفر ، أو ببلاد أخرى تتجاوز درجة حرارتها الخمسين درجة مئوية صيفاً ، مما يجعل ظروف العمل والإنتاج قاسية وتكلفة التدفئة أو التبريد أعلى بكثير.

كما رزقنا الله في هذه المرحلة بقيادات سياسية وطنية تعى مسئوليتها جيدا ، وتحمل هَمَّ وطنها ، وتسهر على نهضته ورقيه ، ولم يبق لنا حتى نحقق النجاح سوى أمرين : أولهما وأهمهما : معية الله تعالى وتوفيقه وعونه وتأييده وعملنا على مرضاته في كل خطواتنا وتصرفاتنا ، والأمر الآخر هو مدى اصطفافنا الوطنى فى مواجهة الإرهاب ودحره

من جهة، وأخذنا بأسباب التقدم العلمي نحو مزيد من العمل والإنتاج من جهة أخرى.

* * *

حضارتان وملحمة وبداية عصر جديد

لا يدرك كثير من المصريين خصوصية الحضارة المصرية التى تستمد خصوصيتها من حضارتين عظيمتين، الأولى تبحر في أعماق التاريخ لأكثر من سبعة آلاف عام ، وما ظهر منها أبهر العالم ، وما خفي منها أضعاف ما ظهر، وأحد أهم عجائب الدنيا السبع ينتمي إلى هذه الحضارة، والحضارة الأخرى تضرب بجذور راسخة تمتد لأكثر من ألف وأربعمائة عام في أعماق وقلب التاريخ ، ولها خصائص لا تدانيها أي حضارة أخرى ، فلم تعرف الإنسانية عبر تاريخها حضارة استوعبت كل الحضارات التي سبقتها ، وحافظت عليها ، وتفاعلت معها ، وهذبتها ، وأخذت منها النافع والمفيد، وأصّلت ورسّخت فقه التعايش السلمي بين بني البشر جميعًا على أسس إنسانية خالصة ، وعلى قدم المساواة الإنسانية ، مثل حضارتنا الإسلامية السمحاء.

فحضارتنا مزيج مستمد من هاتين الحضارتين العملاقتين، فهي حضارة بناء وعمارة للكون ، وحضارة إرادة وتحدٍ للصعاب ، حضارة تربي أبناءها على أنهم لا يعرفون اليأس ولا المستحيل ، فهي حضارة متجددة تجدد نفسها بنفسها ، وتعي قول نبينا (صلي الله عليه وسلم) : " يبعث الله (عز وجل) لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها ".

على أننا نفهم المجدد فهما واسعا شاملا ، فقد يكون عالما فقيها ، وقد يكون ملكا عادلا ، وقد يكون مؤسسة دينية أو علمية أو تشريعية ، وقد يكون قطرًا من أقطارها ، فربما وصلت هذه الأمة في بعض مراحلها إلى درجة من السكون أو الضعف يمكن أن يتوهم أعداؤها فيها أنها قد استكانت أو صارت جثة هامدة لا حراك فيها ، غير أنها في كل مرة تفاجئ الجميع بحراك غير متوقع ، ويأتي من يجدد لها دينها وحياتها وحيويتها . وقد قُلت يوما ما لو أن أعداء هذه الأمة استفرغوا كل ما في جعبتهم من أسلحة ذرية ونووية وكيماوية وبيولوجية وسلطوها على الأمة الإسلامية ، فسيخرج من تحت أنقاض كل هذا كله من يحمل لواء هذه الحضارة من جديد.

لكن الحفاظ على هذه الحضارة والبناء عليها يتطلب أن نكون على قلب رجل واحد ، وأن نقف وقفة رجل واحد ، وأن نعي حجم التحديات التي تحيط بنا في الداخل والخارج ، وأن نكون على قدر المسئولية ، وعلى استعداد للتضحيات ، وأن نقدم المصلحة العامة على أي مصلحة شخصية أو حزبية أو فئوية خاصة ، كما أن ذلك يتطلب منا جميعًا الإيمان بحق الوطن ، وأن مصلحته جزء من صلب ديننا وعقيدتنا ، لأن مصر هي القلب النابض للعروبة والإسلام، وهي درع الأمة وسيفها وصمام أمانها ، وأن قوة

الاقتصاد ودعمه مطلب شرعي ووطني ، لأن الأمم التي لا تملك طعامها وغذاءها وكساءها ودواءها وسلاحها لا تملك كلمتها ، ولا سبيل إلى اقتصاد قوي إلا بالعمل والإنتاج والجهد والعرق ، وهو ما ندعو إليه ونعده من واجبات الوقت، وحق الوطن ، وتلبية نداء الشرع : ملحمة وطنية جديدة : لكن الذي يبعث على الأمل هو ما لمسته من روح وطنية عالية متدفقة ، وبخاصة لدى الشباب المصري الذي يسعى لصنع ملحمة وطنية جديدة ، برغبته الجارفة في المشاركة في حفر المجرى الملاحي الثاني لقناة السويس ، ففي يوم واحد التقيت صباحًا شباب الجامعات في معهد إعداد القادة بحلوان وفي وجود الزميل العزيز وزير التعليم العالي الدكتور سيد عبد الخالق ، وكان هناك شعور وطني جارف ، ورغبة ملحة من الطلاب في المشاركة في حفر القناة بأي وسيلة من وسائل المشاركة ، وفي اليوم نفسه التقيت ممثلين لشباب الأئمة والخطباء بوزارة الأوقاف ولديهم نفس الرغبة التي لا تقل حماسًا عن رغبة شباب الجامعات ، ثم جاءت زيارة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر للمشروع لتضفي إلى بعديه الوطني والاقتصادي بعدًا شرعيًا ، ولها دلالات ، منها : الأولى: اصطحابه مجموعة من علماء الأزهر

ومجموعة أخرى من طلابه في المراحل التعليمية المختلفة ، بما يرمز إلى أن هذا المشروع هو مشروع الحاضر والمستقبل معًا ، الأخرى: دعوة فضيلته الصريحة والواضحة لجميع المصريين إلى الإسهام بقوة في هذا المشروع ، وشراء شهادات الاستثمار المخصصة له ، مما يقطع الجدل ويحسم الخلاف حول حكم هذه الشهادات.

والذي لا شك فيه أن إطلاق السيد الرئيس عبد الفتاح السيسي إشارة البدء في هذا المشروع هي خطوة كبيرة على طريق استقلال الإرادة الوطنية ، وتجردها من أي تبعية للشرق أو للغرب ، وانطلاقة نحو عصر المشروعات الكبرى، تعيد إلينا شيئًا من عبق الماضي وأمجاده ، بداية من بناء الأهرامات ، إلى بناء السد العالي ، إلى العبور الأول لقناة السويس ١٩٧٣م ، ثم إلى هذا العبور الثاني والأهم لهذه القناة ، وهو عبور التنمية والبناء واستقلال الإرادة الوطنية.

* * *

الإسلام دين مكارم الأخلاق بكل ما تعنيه الكلمة من معان ، تتجلى عظمته في أسمى معانيها في جوانبه الأخلاقية ، فهو دين الرحمة ، والعدل ، والصدق ، والأمانة ، والعفاف ، والوفاء ، وكل القيم الإنسانية النبيلة ، وقد لخص النبي (صلى الله عليه وسلم) الهدف الأسمى لرسالته بقوله (صلى الله عليه وسلم) : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ، ولما سُئل (صلى الله عليه وسلم) عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال (عليه الصلاة والسلام):" تقوى الله وحسن الخلق" (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إن من أحبكم إلى وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا" (سنن الترمذي) .

وتتجلى عظمة الإسلام أيضا في إنصافه الآخر والمختلف ، وإيمانه بالتنوع الحضاري والثقافي ، حيث يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز : " وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ " (هود: ١١٨-١١٩) .

وتعد وثيقة المدينة أفضل أنموذج في تاريخ البشرية لترسيخ فقه التعايش السلمي المشترك بين الأديان والأجناس والأعراق والقبائل ، بما حملته من روح التسامح وإنصاف

الآخر ، وحريته في المعتقد، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ " (البقرة: ٢٥٦) .

فقد نصت هذه الوثيقة على أن : يهود بني عوف ، ويهود بني النجار ، ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة ، مع المؤمنين أمة ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. وأن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وأن من خرج منهم فهو آمن ، ومن قعد بالمدينة فهو آمن ، إلا من ظلم أو أثم ، وأن الله (عز وجل) جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

غير أن واقع كثير من الجماعات المنتسبة ظلمًا إلى الإسلام يعكس واقعا مرًا ، فنرى القتل وسفك الدماء ، والتدمير والتخريب ، الذي يرتكب باسم الإسلام وتحت راية القرآن ، والإسلام والقرآن من كل ذلك براء ، وآخرها تلك الفعلة الإجرامية الشنعاء النكراء بحرق الطيار الأردني ، تلك الفعلة الآثمة التي تعد وصمة عار في تاريخ وجبين الإنسانية ، إضافة إلى ما نعانيه من عمليات إرهابية من قتل وتفجير ، وتخريب وفساد وإفساد على يد تنظيم الإخوان الإرهابي والجماعات التي انبثقت عنه أو تعمل في موالاته .

كما نرى تخلفًا عن مصاف الأمم المتقدمة في العمل والإنتاج على عكس ما يأمرنا به ديننا الحنيف ، حيث يقول الحق سبحانه : " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (الملك : ١٥) ، ويقول سبحانه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (الجمعة : ١٠) ، وقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَة فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا ، فَلْيَغْرِسْهَا " (رواه أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " خيركم من يأكل من عمل يده " (أخرجه البخاري) ، ويقول عليه الصلاة والسلام : " من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورًا له " (أخرجه الطبراني) .

كما نجد انحرافًا واضحًا لدى كثير من المنتسبين إلى الإسلام في مجال القيم والأخلاق ، فبينما يأمرنا الإسلام بالصدق ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، نجد واقع المسلمين غير ذلك ، مما يتطلب جهدًا كبيرًا لتصحيح هذه الأخطاء ، وإزالة التشوهات والنتوءات التي لحقت بالوجه الحضاري السمح لديننا الحنيف ، وهو ما نؤمل أن يعالجه مؤتمرنا القادم للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية تحت عنوان " عظمة الإسلام وأخطاء بعض المنتسبين إليه : طريق

التصحيح " في بحوثه وتوصياته ، أو أن يسهم على أقل تقدير في تصحيح أخطاء هذه الجماعات ، وإبراز الوجه الحقيقي لسماحة الإسلام وأوجه عظمته.

* * *

ثقافة البناء والرقي

إن تقدم الأمم لا يمكن أن يبنى على صعيد واحد أمني أو عسكري أو اقتصادي أو ثقافي أو تكنولوجي ، إنما هي منظومة تتحرك معًا في جوانب متعددة ، وفي آن واحد ، تتسابق في جميع المجالات لبناء ذاتها ، واستدراك ما فات ، ومحاولة اللحاق بما هو آت ، كل فيما يخصه ، إنها ثقافة التقدم والرقي تسري في دماء وعروق الوطن وأبنائه ، فتؤتي أكلها ولو في نمو غير منظور كنمو الطفل ، غير أن المتابع أو المراقب عن بعد والمعني بالتحليل ورصد التفاصيل يدرك تفاصيل كل مرحلة من مراحل هذا النمو مهما كانت دقتها ، لأنه معني بها ، مشغول بمفرداتها وجزئياتها ، عامل على نموها وتطورها ، والوصول بها إلى الدرجة المثلى لو وجد إلى ذلك سبيلا .

وكما قال الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) :

ليس الفتى من يقول كان أبي

لكن الفتى من يقول ها أنا ذا

وقال أحد الأدباء ليت أبي لم يكن فاضلا ، قيل له كيف ذلك ؟ قال لأن فضله صار نقصًا لي عندما قصّرت عن درجته ورتبته ، فذكر النقاد أن فضل الأب الفاضل يزيد من منقصة الولد الناقص حين يقصّر عن فضل آبائه وأجداده ، أما إذا

أضاف الولد إلى رصيد آبائه وأجداده فهذا فضل يضاف إلى فضل ، وبناء يوضع على أساس متين ، على حد قول زهير ابن أبي سلمى :

وما بك فضل أتوه فإنما

توارثه آباء آبائهم قبل

وعلى أقل تقدير تكون عند حسن ظن القائل :

نبني كما كانت أوائلنا

تبني ونصنع كالذي صنعوا

وقد زرت الأربعاء ٩ / ٤ / ٢٠١٤ مقر إجراء المسابقة العالمية الحادية والعشرين للقرآن الكريم التي شارك فيها نحو ٧٠ متسابقًا من ٤٦ دولة ، فتملكني شعوران متناقضان : أحدهما فخر واعتزاز ، والآخر عتب وأسى ، أما الفخر والاعتزاز ، فهو لمستوى هذه المسابقة في الإتقان والإحكام والتنظيم وقدرة العقل المصري والشباب المصري على الابتكار والإبداع والتعامل الراقي مع التكنولوجيا ، ومستوى المُحكمين ، حيث كان على المنصة خمسة مُحكمين من مصر ، والبحرين ، والسودان ، والسنغال ، وموريتانيا ، إضافة إلى مستوى المتسابقين الذي يُشرح الصدر ، ويؤكد أن الأمة لا تزال بخير ، وستظل بخير إلي يوم القيامة إن شاء الله تعالى ، وصدق الله العظيم حيث يقول : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " (الحجر : ٩) .

وتأتي إقامة هذه المسابقة لتؤكد حرص مصر قيادة وشعبًا على خدمة كتاب الله وإكرام أهله، ويتضح ذلك من خلال استضافة هذه الكوكبة من أبناء الدول المشاركة من شتى بقاع العالم ، من السعودية ، والكويت ، والبحرين ، واليمن ، والأردن ، والسودان ، والسنغال ، وكينيا ، وبوروندي ، وأوغندا وروسيا ، والصين ، وبنجلاديش ، والفلبين ، وباكستان ، وكازاخستان ، والنيجر ، والكونغو ، وغيرها من الدول ، على أنك تجد في المتسابقين جميعًا ما يسر نفسك من روح المحبة والمودة والتسامح الإنساني من جهة ، والإقبال على كتاب الله عز وجل حفظًا وتلاوة وإتقانًا من جهة أخرى .

أما الذي آلم نفسي ونال منها فأمران :

أولهما : أن بعض القنوات المتخصصة أو شبه المتخصصة التي كانت تعنى بشأن القرآن الكريم قد خرجت عن السياق عندما انحرفت عن رسالتها القرآنية التي كانت معلنة ، وانجرفت بعنف في التيارات السياسية ، فلم تصلح للسياسة ، ولم تبق للقرآن ، مما يزيدنا إيمانًا بأن تكون الدعوة للدعوة بعيدًا عن التحزب السياسي أو المذهبي ، وعدم خلط الدعوة بالسياسي .

الآخر : أن هذه المسابقة كانت في حاجة إلى تغطية إعلامية أوسع بما يتناسب ومستوى الحدث ، ويضيف إلى ريادة مصر الدينية والثقافية في العالمين العربي والإسلامي ،

بل يدعم مكانتها في شتى بقاع العالم كرمز للسماحة والوسطية وخدمة كتاب الله (عز وجل) ، وإن كنا لا ننكر أن بعض الوطنيين الشرفاء قد بذلوا في ذلك جهدًا يستحقون عليه شكرًا كبيرًا ، لكنها جهود فردية ، ولازال العقل الوطني الجمعي في حاجة إلى مزيد من الحركة والنمو .

إن ثقافة البناء التي نريدها هي التي تبني ولا تهدم ، هي التي لا تعرف التدمير ولا التخريب ، ولا العصبية العمياء ، ولا الدماء ولا الثأر ولا الانتقام ، هي التي لا تعرف سوى طريق واحد هو طريق البناء فقط ، هو طريق التعمير فقط ، هو طريق الضمير الوطني الذي يعمل لصالح الجماعة لا لصالح الفرد وحده ، هو الذي يؤثر المصلحة العليا للوطن على أي مصلحة شخصية أو فئوية أو حزبية ، هي الثقافة التي تتجاوز الشكل إلى المضمون ، والتجمل إلى الجمال ، والتصنع والتكلف إلى العطاء الحقيقي النابع من الإيمان بالوطن ، والرغبة في بنائه وتقدمه ورقيه .

* * *

الدولـــة والفوضـــى

هذا العنوان يحمل العديد من المدلولات الهامة ، أولها: الفرق بين الدولة والفوضى ، فالدولة حماية ، الدولة أمان ، الدولة ثقة ، الدولة استقرار ، الدولة نظام ، الدولة مؤسسات ، الدولة أجهزة ، الدولة بنى فكرية وسياسية واقتصادية وتنظيمية وتشريعية ، والفوضى على العكس من ذلك كله ، فهي اللانظام ، واللامؤسسات ، واللا أمان ، واللا استقرار ، واللا أمن ، وهكذا سلسلة من السلبيات لا الإيجابيات .

وقد حاول أعداء الأمة أن يُسوّقوا لهذه الفوضى ، وأن يجملوا وجهها ببعض المساحيق المسرطنة ، فقالوا : الفوضى الخلاقة ، والفوضى البناءة ، الفوضى الفاعلة ، في مؤامرات خسيسة ودنيئة وقذرة لتفكيك دولنا ، والوصول بها إلى دويلات صغيرة وعصابات متناحرة ، وبالأحرى اللادولة على نحو ما نرى حولنا في ليبيا وسوريا والعراق واليمن ، أو نحو ما حدث في الصومال وأفغانستان وغيرهما من الدول ، كل ذلك لتسهل السيطرة على هذه الدول ، ونهب خيراتها والاستيلاء على مقدراتها والتحكم في قراراتها وتوجهاتها ، أو التخلص من كيانها لو وجدوا إلى ذلك سبيلا، ونسج مسخ جديد منبت الصلة عن ماضيه وحاضره ، حائر متوجس من مستقبله ، أو لا أمل له فيه أصلا ، ونسي هؤلاء أو تناسوا

عِبر ودروس التاريخ من أنه لا أمان لأحد في هذا العالم ما دام ظلم الإنسان والعمل على استعباده قائما، ويحضرني في ذلك قول الشاعر العراقي محمد مهدي الجوهري :

وما أنا بالهيّـابِ ثـورةَ طامـعٍ
ولكنْ جِماعُ الأمرِ ثـورةُ ناقـم

فما الجوعُ بالأمرِ اليسيرِ احتمالُهُ
ولا الظُّلْمُ بالمرعى الهنيءِ لِطاعِـم

نَذيرَكَ مِن شعب أُطيلَ امتهانُـه
وإنْ باتَ في شكلِ الضّعيفِ المسالـم

سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد ، أم على مستوى الأمم والشعوب ، فما يحدث في شرق العالم نجد صداه في غربه ، وما يكون في شماله تجد أثره وصداه في جنوبه ، بل إن الجهات الأربع تتداخل وتتوارى وتتقاطع في ظل أدوات التواصل الحديثة والعصرية التي جعلت من العالم كله قرية واحدة ، على أن الإرهاب عابر للقارات ، متجاوز للحدود ، فكما نؤكد دائما الإرهاب لا دين له ، ولا وطن له ، ولا عقل له ، وكما قالوا: فإن خلائق السفهاء تعدي.

ولا شك أن الفوضى التي تحدث حولنا كان مخططا لها أن تدور في بلادنا ، لكن ما قامت به قواتنا المسلحة الباسلة بقيادة السيد الرئيس عبد الفتاح السيسي رئيس الجمهورية أفشلت مخططات أعدائنا وأربكت حساباتهم ، وكشفت

مؤامراتهم الدنيئة تجاه وطننا وأمتنا ، وهو ما يستحق منا التحية والتقدير للسيد الرئيس ولقواتنا المسلحة الباسلة ، ويجعلنا نعلن بكل فخر واعتزاز ثقتنا الكاملة في قواتنا المسلحة والوقوف بكل ما أوتينا من قوة من خلفها ، مع تجديد الثقة والتفويض للسيد الرئيس سواء في مواجهة الإرهاب والتخريب ، أم في منطلق البناء والتعمير .

وهناك جانبان آخران من الفوضى يجب التصدي لهما بكل قوة وحسم :

الأول : ما ترمي إليه الجماعات الإرهابية من محاولة زعزعة استقرار المجتمع من خلال عمليات التفجير والتدمير وترويع الآمنين واستهدافهم وإطلاق الشائعات للتأثير على المجتمع وخلخلة ثوابته وثقته في قيادته ، وقد أكدنا من قبل وسنظل نؤكد أنه لا بد من محاكمة هؤلاء المجرمين بتهمة الخيانة الوطنية ، ففي الوقت الذي تحيط فيه بنا المخاطر من جوانب متعددة ، يحتاج منا جميعا أن نعمل وبكل حسم على تطهير جبهتنا الداخلية من الخونة والعملاء والمأجورين وأذناب الاستعمار وعملائه ، فعلى حد قول الشاعر العراقي محمد مهدي الجوهري :

ولقد رأى المستعمرون فرائسا
منا وألفـــوا كلب صيد سائبا

فتعهدوه فراح طوع بنانهـــم
يبـــرون أنيابا لـــه ومخالبـــا

مستأجرين يخربون بيوتهـــم

ويكافأون على الخراب رواتبا

النوع الآخر من الفوضى : هو البلطجة الفئوية ، ومحاولة ابتزاز الدولة ، فقد مرت الدولة بمرحلة استطاع فيها بعض النفعيين والانتهازيين استغلال حالة الفراغ الأمني؛ للحصول على مكاسب أو مواقع لا يستحقونها ، أو غيرهم أولى بها منهم على أقل تقدير ، وقد أغرى ذلك بعض ضعاف النفوس ومازال يغري البعض بالسير في الاتجاه نفسه ، غير واعين بالمتغيرات ولا التحديات ، فقد عادت أجهزة الدولة الوطنية إلى ممارسة عملها الطبيعي وصارت تميز الخبيث من الطيب ، وتدرك أهمية اختيار الكفاءات الوطنية المخلصة ، وخطورة ماكان يتم في مراحل سابقة من الاستجابة لابتزاز الأعلى صوتا أو الأكثر قدرة على الحشد والإثارة والتهييج .

كما ينبغي أن يدرك الجميع أننا في مرحلة فارقة من تاريخنا سواء على مستوى الوطن، أم مستوى الأمة ، أم مستوى المنطقة ، وهذا يستدعي من جميع الوطنيين الشرفاء إيثار المصلحة العامة على أي مصلحة شخصية أو حزبية أو نفعية ، وأن نعمل جميعًا على كشف المبتزين وأصحاب المصالح والمطامع والمنافع في أنانية مقيتة ، يقول سبحانه وتعالى : " وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" (يوسف : ٢١) .

لهذا تقدم الغرب (١)

لا شك أن الحكمة هي ضالة المؤمن، يبحث عنها، ويجتهد في طلبها ، ويسند الفضل فيها إلى أهله ، وأننا لابد أن ننظر في تجارب الآخرين ، فنأخذ منها النافع والمفيد، ونطرح ما سوى ذلك، ولا ينبغي أن نكابر فنزعم بالقول دون العمل أننا خير الأمم وسادة البشر ، ناسين أو متناسين أن سيد الخلق محمد (صلى الله عليه وسلم) قد حذرنا من كثرة كغثاء السيل لا غناء فيها ، وأن سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان يقول : "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، وكان يقول في شأن العجم والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد (صلى الله عليه وسلم) منا يوم القيامة.

وإذا نظرنا نظرة متأملة فاحصة متأنية في سر تقدم الغرب وجدنا أسبابًا كثيرة ، وأن هذا التقدم لم يكن عفويًا أو وليد الصدفة ، إنما كان نتاج جهد وعمل شاق ودءوب .

أهم الأسباب:

١ ـ تقديس العمل وقيمته ، فكل ما دعا إليه الإسلام من تقديس العمل والحث عليه تراه واقعًا ملموسًا في حياة الأمم الراقية والمتقدمة ، ولا مجال للمحاباة أو المجاملة في مجال العمل.

لكننا للأسف الشديد تجاهلنا قيمنا الإسلامية ، وأصبح متوسط إنتاج الفرد لدينا لا يقاس ولا يقارن بالمستويات العالمية ، على أن الشخص نفسه إذا سافر إلى دولة أخرى رأيناه يؤدي عمله على الصورة المطلوبة ، وكأنه ليس ذلك الشخص الذي كان يعمل في بلده ، في حين أنه لو عمل بهذا الجد في أي مكان كان لوجد بركة في ماله حتى لو كان قليلا ، لكنها ثقافة تسري هنا أو هناك ، وصدق الشيخ الإمام محمد عبده حين قال ذهبت إلى أوروبا فرأيت إسلامًا بلا مسلمين ، وجئت إلى مصر فرأيت مسلمين بلا إسلام.

ولا سبيل إلى النهضة والرقي إلا بالعمل الجاد، وليس بمجرد العمل بل بإتقانه ، وهذا نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول: " إن الله عز وجل يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه " ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إذا قامت الساعة وفي يد أحكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها " ، وقد أمرنا الله (عز وجل) بالسعي والعمل ، فقال سبحانه وتعالى : " فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (الملك : ١٥) .

٢ . تعظيم قيمة الوقت :لقد أعلى الإسلام من شأن الوقت وقيمته فأقسم الحق سبحانه وتعالى به في أكثر من موضع في كتابه العزيز ، حيث يقول سبحانه : " والعصر ، والفجر

وليال عشر ، والضحى والليل إذا سجى ، والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها " ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "لا تزول قدم عبد حتى يُسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به" .

ومع ذلك كله لا نقدر للوقت قدره ولا نعرف له قيمته ، ولا نلتزم بدقة المواعيد التي أُمرنا بالالتزام بها ، ونتسامح في الفسحة فيها بلا حدود ، بل إن بعضنا لا يكاد يكترث بالمواعيد التي يحددها ولو راجعته أو ناقشته لضاق بك ذرعًا ، غير أن كل المعاني الراقية السامية التي أمرنا الإسلام أن نلتزم بها تراها واقعًا ملموسًا مطبقًا بمنتهى الدقة والحرفية لدى أكثر الغربيين ، وعندما أقول أكثرهم أقول ذلك على سبيل الاحتياط فحسب ، لكن كل من تعاملت معهم في رحلتي إلى باريس كانوا أكثر انضباطًا من عقارب الساعة كما يقولون ، كما أن تقديرهم للوقت الذي يحتاجونه لإنجاز أعمالهم صار مدروسًا ومحددًا بمنتهى الدقة والحرفية والمهنية التي تثير الدهشة والإعجاب لنا ، غير أن الذي يثير الدهشة لديهم هو ألا تكون كذلك ، فقد صار هذا الالتزام طبعًا فيهم .

٣ . احترام الآخر وثقافته وخصوصيته أيًّا كانت هذه الثقافة وتلك الخصوصية ، وتشعر أن هناك امتلاءً فكريًا وثقافيًا يحول

بين الإنسان وبين الفضول أو التلصص على الآخرين أو محاولة اختراق خصوصياتهم أو الخوض في تفاصيل حياتهم أو حتى عموميتها ، وهذا هو منهجنا الإسلامي الذي غفلنا عنه، ألم يقل نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه "وقديمًا قالوا من تدخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه .

* * *

لهذا تقدم الغرب (٢)

لا شك أن الحكمة هي ضالة المؤمن ، يبحث عنها ، ويجتهد في طلبها ، ويسند الفضل فيها إلى أهله ، وإننا لابد أن ننظر في تجارب الآخرين ، فنأخذ منها النافع والمفيد ، ونطرح ما سوى ذلك ، ولا ينبغي أن نكابر فنزعم بالقول دون العمل أننا خير الأمم وسادة البشر ، ناسين أو متناسين أن سيد الخلق محمد (صلى الله عليه وسلم) قد حذرنا من كثرة كغثاء السيل لا غناء فيها ، وأن سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان يقول : من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، وكان يقول في شأن العجم: والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل لهم أولى بمحمد (صلى الله عليه وسلم) منا يوم القيامة.

وقد ذكرنا في مقالنا السابق ثلاثة أسباب لتقدم الغرب ، ونزيد في هذا المقال ثلاثة أسباب أخرى ، وهي:

١ ـ وهذا هو الأهم إنهم يبنون ويعملون لأوطانهم.

فمن يتابع حركة المجتمع الغربي يجد أن الشخص يعمل لنفسه ولوطنه في آن واحد ، فهو جزء من منظومة تتحرك للمصلحة الوطنية ، وتعرف بدقّة طريقها ، وتحدد اتجاهاتها وأهدافها ، وتجتهد في الوصول إلى هذه الأهداف من أقصر الطرق ، وأقلها كلفة ، وأكثرها فائدة ، مُدركين إدراكًا لا لبس

فيه أن مصلحة الوطن ستنعكس بلا شك على أفراده ، وأنّ أحدًا لن ينجح وحده ، غير أنّ كثيرًا منا للأسف الشديد لا يكتفي بعدم البناء ، فصار بعضنا يهدم ، والأدهى والأمرّ أن يهدم بعض الناس باسم الدين ، بل باسم الإسلام ، محمّلين آثامهم وخطاياهم على الإسلام ، وهو منهم براء ، ولو نطق لتبرأ منهم ومن أفعالهم الآثمة الشنعاء ، وكما ذكر فضيلة الإمام الأكبر في كلمته أمام مؤتمر « خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم على المصالح الوطنية والعلاقات الدولية » الذي أقامه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية أواخر مارس الماضي ، حيث قال: وللأسف الشديد فإن أعمال القتل والإرهاب وترويع الآمنين تُرتكب باسم الإسلام وتحت صيحات التكبير والتهليل ، على نحو ما نرى ونشاهد من تلك الأعمال الإجرامية التي تتخذ من التفجير والتدمير والإرهاب مسلكًا ، وحتى لو كان بعضنا يحاول البناء ، فإن يد الهدم أسرع ، وقديمًا قال شاعرنا العربي :

لو كل بانٍ خلفه هادم كفى
فكيف ببانٍ خلفه ألف هادم

وقال الآخر:

متى يبلغ البنيانُ يومًا تمامَه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

فلا بدّ أن نتعاون في الضرب بيد من حديد على أيدي المجرمين والمخربين والمدمرين ، ومن يقطعون الطرقات ، ويروّعون الآمنين ، ويُعطّلون مسيرة الأعمال والإنتاج ، وألاّ نكون سلبيين ، بل نعمل على كفّ الظلم والعدوان ، والطيش والبغي ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " انصر أخاك ظالماً أو مظلومًا ، قالوا يا رسول الله : ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالماً " ، فقال (صلى الله عليه وسلم): " تأخذ على يده أي تَكُفّه عن ظلمه" (صحيح البخاري) ، ويقول الحق سبحانه : " وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء " (إبراهيم: ٤٢ -٤٣) .

٢ – هم يُقدّسون حضارتهم ونحن نُشوّه حضارتنا ، إنهم يعملون على تعظيم ما لديهم من طاقات وإمكانات معرفية أو مادية أو حضارية ، فلا يكُفّون عن الإشادة بها ، ويُحسنون عرضها وتسويقها ، وإبهار الآخرين بها، وكثير منّا يتنكر لحضارته ، ويكاد يتبرّأ من كثير من معالمها ، وقد جنحت فئةٌ لا تُحسن فهم دينها ، ولا تتخلق بأخلاقه الصحيحة ، ولا تتأدّب بآدابه الراقية ، جنحَت هذه الفئة إلى مسلك التشدد والعنف ، والتطرف والإرهاب ، وسوء الفهم ، وسوء التفسير ، وسوء التأويل ، فشوّهت الوجه السمح الراقي

الحضاري لحضارتنا الإسلامية ، فبعد أن كان الناس جميعًا يُسلّمون بسماحة الإسلام وسعة أفقه تسليمًا لا مجالَ للجدالِ فيه صِرنا مضطرين أن نبرهنَ وندلل على أن الإسلام بعيد كل البعد عن تلك الأفعال الإجرامية الإرهابية ، وأن الإسلام لا علاقةَ له بالإرهاب ، وأن الإرهاب لا دينَ له ، ولا لونَ له ، ولا جنس له ، ولا وطن له ، وكأننا مضطرون أن نصرخ قائلين : لسنا كذلك ، لسنا بهذه الصورة البشعة التي رسمتها الجماعات الحمقى المتطرفة للإسلام في أذهان كثير من الغربيين، مما يحمّلنا عبئًا أكبر ويجعلنا مضطرين لبذل جهود مضنية في أن ننفي عن أنفسنا تُهمًا نحن منها براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب (عليه السلام) .

٣ - التخطيط والنظام واحترام سيادة القانون: وهذه معانٍ لا غنى عنها لأي أمة تبحث عن سبل التقدم والرقي ، فالعدالة التي لا تعرف التفرقة بين الغني والفقير بين الناس جميعًا على اختلاف طبقاتهم السياسية والاجتماعية والوظيفية هي الضمانة الأولى لاستقرار المجتمعات ، فكما قال أحد السلف :إن الله عزّ وجلّ ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا ينصر الأمة الظالمة ولو كانت مؤمنة.

كما أن التخطيط والنظام أمران لا بديل عنهما ، ويقولون : الحكيم قد يخطط في عام ، وينفذ في يوم أو أسبوع تنفيذًا دقيقًا محكمًا ، والأحمق لا يفكر ولا يخطط، ويتخبط في التنفيذ طوال حياته.

خطورة الفكر التكفيرى

خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم على المصالح الوطنية والعلاقات الدولية هو عنوان مؤتمرنا الثالث والعشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف.

حيث يأتي عقد هذا المؤتمر في مرحلة دقيقة وفارقة من تاريخ أمتنا العربية بصفة عامة وتاريخ جمهورية مصر العربية بصفة خاصة ؛ في أعقاب ثورتين مرت بهما جمهورية مصر العربية، هما : ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١م، والثلاثين من يونيو ٢٠١٣م ، في وقت تستعيد فيه مصر مكانتها التاريخية وقيمها الحضارية التي لا تعرف سوى التسامح الذي يحمل لواءه بقوة ووضوح أزهرها الشريف.

غير أننا في مصر عانينا كما عانى غيرنا في دول المنطقة وفي الكثير من دول العالم -أشد المعاناة من موجات التشدد باسم الدين ، واقتحام غير المتخصصين لساحات الدعوة والفتوى ، وتوظيف الدين لأغراض سياسية مما جعلنا نقرر وبقوة النأي بالدعوة والفتوى معًا عن أي توظيف سياسي أو صراعات حزبية أو مذهبية ، قد تتاجر باسم الدين أو تستغل عاطفة التدين لتحقيق مصالح خاصة حتى لو كان ذلك على حساب أمننا القومي.

والذي لا شك فيه أن أي موجات للتشدد أو العنف أو الإرهاب أو الإسراع في التكفير إنما تنعكس سلبًا على قضايا الوطن وأمنه واستقراره ومصالحه العليا من جهة ، وعلى علاقاته الدولية من جهة أخرى ، حيث يصبح الخوف من عدوى التشدد هاجسًا كبيرًا لدى الأوطان والدول الآمنة المستقرة ، في وقت صار العالم فيه قرية واحدة ما يحدث في شماله يؤثر في جنوبه ، وما يكون في شرقه نجد صداه في غربه ، بل إن تأثير الجهات الأربع يتداخل ويتوازى ويتقاطع بشدة في ظل معطيات التواصل العصري عبر شبكات التواصل المتعددة التي لم يعد بوسع أحد تفادي أصدائها وتأثيراتها.

وقد حذر العلماء من خطورة إطلاق التكفير دون دليل قاطع، فقال الإمام الشوكاني (رحمه الله) :" إن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دينه ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، وفي التأكيد على خطورة التكفير والتحذير من إطلاقه بدون حق يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ " (أخرجه البخاري ومسلم) .

والذي لا شك فيه أيضًا أن روح التسامح والوعي بمقتضيات فقه التعايش من خلال المشتركات الإنسانية والتواصل الحضاري في ضوء الاحترام المتبادل بين الأمم والشعوب من جهة ، وبين الطوائف المتعددة في المجتمع الواحد من جهة أخرى ، إنما تنعكس إيجابًا على المصالح العليا للوطن من حيث الأمن والاستقرار ، والتقدم والرخاء ، بما يؤدي إلى مستقبل أفضل ، والرقي إلى مصاف الأمم المتقدمة ، وأن هذه الروح هي أصل من أصول الدين حيث قام التشريع الإسلامي على اليسر ورفع الحرج ، يقول الحق سبحانه وتعالى: " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " (البقرة : ١٨٥) ، ويقول سبحانه: " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ "(الحج: ٧٨) ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "إِنّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ " (صحيح مسلم) وما خُيِّر (صلى الله عليه وسلم) بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا ولا قطيعة رحم ، فإن كان إثمًا أو قطيعة رحم كان (صلى الله عليه وسلم) أبعد الناس عنه.

غير أن اقتحام غير المتخصصين لعالم الدعوة ، وتصدرهم بغير حق لمجال الفتوى أدى إلى كثير من الضلال والإضلال والانحراف ، وصدق نبينا (صلى الله عليه وسلم) إذ يقول : " إِنّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ

مِنَ الْعِبَادِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضِ الْعُلَمَاءِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا " (صحيح البخاري) .

ومن هنا كان اختيار موضوع :(خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم على المصالح الوطنية والعلاقات الدولية) عنوانًا لهذا المؤتمر ، قصد تصحيح المفاهيم الخاطئة لدى كثير من الشباب والجماعات المتطرفة التي اتخذت من تكفير الآخر أو تخوينه أو اتهامه في دينه أو وطنيته وسيلة للتخريب والإفساد في الأرض " وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ " (البقرة : ٢٠٥) .

وإننا إذ نقيم هذا المؤتمر نؤمّل أن يقدم حلولا جذرية وإسهامًا جادًا في القضاء على الفكر التكفيري وفوضى الفتاوى التي تضر بالمصالح الوطنية والعلاقات الدولية.

* * *

تلبيس إبليس وغياب العقل

عندما ندرس الظواهر الغريبة على مجتمعنا المصري لابد أن نتعمق في الدراسة والرؤية، وأن نقف على حقيقة المخاطر التي تهدد الوطنا دون موارية أو حسابات سياسية، فالوطن فوق الجميع، وإما أن يكون وطن ودولة أو تكون فوضى تأكل الأخضر واليابس،ويكتوي بنارها الصغير والكبير، غير أن العقلاء والحكماء والشرفاء والوطنيين لا يمكن أن يسمحوا بالوصول إلي هذه الفوضى التي يخطط لها أعداء الوطن تحت مسمي فوضى خلاقة أو غير خلاقة، فالفوضى هي الفوضى علي كل حال وإن لبس الملبسون من أعوان إبليس وجنوده في الأرض.

وقد أعلنا بوضوح عن الرأي الشرعي في العمليات الإجرامية سواء أكانت انتحارية أم غير انتحارية ، مؤكدين أن من يفجر نفسه سواء أصاب غيره أم لم يصب منتحر يعجل بنفسه إلى الجحيم والهلاك في الدنيا والآخرة ، فإن فجر عن بعد في غيره فهو قاتل ومفسد ومعتد، أما المحرضون فهم شركاء في الجرم لا محالة ، وأما الصامتون والشامتون فهم شركاء بصمتهم ، حيث يوفرون غطاء معنويا ومناخا مجتمعيا يهيئ لمثل هذه الأعمال الإجرامية.

وهذه الرؤى الشرعية قد أكدها العلماء المخلصون ليس في مصر وحدها ، بل في كثير من دول العالم الإسلامي.

علي أن هذه الأعمال الإجرامية ترجع إلى أمور أهمها: غياب العقل وتلبيس شياطين الإنس قبل الجن. أما غياب العقل أو تغييبه ، فيقولون : الأحمق عدو نفسه ، وعدو عاقل خير من صديق أحمق ، لأن الأحمق يريد أن ينفعك فيضرك ، ولا يكتفي أعداء الدين والوطن بمجرد اصطياد الحمقي والمغفلين ، بل يعملون بكل ما أوتوا من قوة علي تغييب عقولهم ، بحشوها بالمغالطات أو بإفسادها وإنهاكها والقضاء عليها بشتى السبل.

وأما تلبيس إبليس فله وسائل متعددة ومسالك ومسارب شتي ، سواء أكان من شياطين الجن أم من شياطين الإنس ، حيث يقول الحق سبحانه : " شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا " (سورة الأنعام: ١١٢) ، ويقول الإمام الأوزاعي (رحمه الله تعالى) : ما أمر الله (عز وجل) في الإسلام بأمر إلا حاول الشيطان أن يأتيك من إحدي جهتين لا يبالي أيهما أصاب الإفراط أو التفريط ، الغلو أو التقصير ، فيصور له التهور والحمق والطيش والبغي والعدوان علي أنه شجاعة ، وإذا غذي ذلك المأجورون ممن يلبسون ثوب الدين والدين منهم براء بالفتاوي المضللة تحول هذا الطيش إلى لون من الجنون وغياب العقل وارتكاب الحماقات الإجرامية في حق وطنهم وبني جلدتهم ، فيوهمون الشباب زورا وبهتانا وافتراء على الله ورسوله أن ما يقومون به هو لون من ألوان الشهادة في

مقاومة أهل البغي والفساد، علي أن الأمر عكس ذلك، فهؤلاء فاسدون مفسدون يعيثون في الأرض فسادا ، يهلكون الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، وقد نظر نبينا (صلي الله عليه وسلم) إلي الكعبة فقال لها: ما أعظمك وما أشرفك وما أعظم حرمتك عند الله (عز وجل) ، ولكن دم المؤمن أعظم عند الله (عز وجل) منك ويقول الحق سبحانه: " أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا " (المائدة : ٣٢) ، علي أن الإسلام لم ينه عن القتل أو الاعتداء علي الآمنين فحسب ، إنما نهى عن مجرد ترويعهم أو التعرض لهم، أو إشاعة الخوف فيهم، فشرع قتال البغاة والمجرمين الذين يعتدون علي الدماء أو الأعراض أو الأموال، وفي حد الحرابة يقرر العلماء أن المجرمين إذا قطعوا الطرق وقتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإن قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ، وإن أخذوا المال ولم يقتلوا تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، فإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولم يأخذوا مالا عذروا بقدر جريمتهم ونفوا من الأرض أي أخرجوا منها، يقول الحق سبحانه : " إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (سورةالمائدة: ٣٣).

والخلاصة: أن ما يحدث من عمليات إجرامية انتحارية أو تفجيرية لا علاقة له بالدين ولا بالعقل، فهذه الأفعال لا يمكن أن يقرها أي دين أو عقل أو قانون أو آدمية أو إنسانية، فهؤلاء أناس لا نقول: انسلخوا من دينهم وسلبت عقولهم فحسب ، إنما انسلخوا إلى جانب ذلك كله من كل الأديان والقيم والأعراف ومن آدميتهم وإنسانيتهم، لأن ما يحدث لا علاقة له بالآدمية أو الإنسانية ، ولا حتى الحيوانات التي لا عقل لها يمكن أن تقدم على مثل هذا الإجرام. ومن هنا كان علينا جميعا أن نقف صفا واحدا في مواجهة هذا الإرهاب .

* * *

نظام الحكم والمتاجرة بالخلافة

لم يضع الإسلام قالبا جامدًا صامتا محددًا لنظام الحكم لا يمكن الخروج عنه ، وإنما وضع أسسًا ومعايير متى تحققت كان الحكم رشيدًا يقرّه الإسلام، ومتى اختلّت أصاب الحكم من الخلل والاضطراب بمقدار اختلالها. ولعل العنوان الأهم الأبرز لنظام أي حكم رشيد هو مدى تحقيقه لمصالح البلاد والعباد، وعلى أقل تقدير مدى عمله لذلك وسعيه إليه ، فأي حكم يسعى إلى تحقيق مصالح البلاد والعباد في ضوء معاني العدل والمساواة والحرية المنضبطة بعيدًا عن الفوضى والمحسوبية وتقديم الولاء على الكفاءة فهو حكم رشيد معتبر، وتحت هذا العنوان الرئيس تتداعى تفاصيل كثيرة تهدف في مجملها إلى تحقيق العدل بكل ألوانه السياسية والاجتماعية والقضائية بين البشر جميعًا، وعدم التمييز بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو العرق ، ولا إكراه في الدين، يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) في مخاطبة كفار مكة: « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» (الكافرون :٦) ، فكل حكم يعمل على تحقيق ذلك ويسعى إلى توفير الحاجات الأساسية للمجتمع من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وبنى تحتية من : صحة ، وتعليم، وطرق، ونحو ذلك مما لا تقوم حياة البلاد والعباد

إلا به، فإنه يُعد حكمًا رشيدًا سديدًا موفقًا ، مرضيًا عند الله وعند الناس إلا من حاقد أو حاسد أو مكابر أو معاند أو خائن أو عميل ويؤكد أهل العلم والرأي والفكر أن الله (عز وجل) ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة. أما من يتخذون من قضية الخلافة وسيلة للمتاجرة بالدين واللعب بعواطف العامة محتجين ببعض النصوص التي يسقطونها إسقاطا خاطئًا دون أي دراية بفقه الواقع أو تحقيق المناط من جهة ، ويجعلونها أصل الأصول الذي عليه مناط الإيمان والكفر من جهة أخرى ، فإننا نرد عليهم بما أكد عليه فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر في كلمته التي ألقاها في مؤتمر (الأزهر في مواجهة الإرهاب والتطرف) من أنه لا نزاع بين أهل العلم المعتبرين أن الخلافة أليق بالفروع وأقرب لها ، ومذهب الأشاعرة على أنها فرع لا أصل، وذكر فضيلته ما ورد في كتاب شرح المواقف الذي يُعد أحد أعمدة كتب المذهب الأشعري، حيث ذكر مؤلفه في شأن الإمامة أنها "ليست من أصول الديانات والعقائد عندنا بل هي فرع من الفروع " ، ثم علق فضيلة الإمام قائلا : فكيف صارت هذه المسألة التي ليست من أصول الدين عند أهل السنة والجماعة فاصلا عند هذا الشباب بين الكفر والإيمان ، وفتنة

سُفِكَت فيها الدماء، وخُرّب العمران ، وشُوّهت بها صورة هذا الدين الحنيف ؟!

وعندما تحدث النبي (صلى الله عليه وسلم) في حديثه الجامع عن الإيمان والإسلام والإحسان لم يجعل (صلى الله عليه وسلم) الخلافة ركنا من أركان الإيمان أو الإسلام ، فعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال : " بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا قَالَ أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى

الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ " (مسلم) .

أما جملة الأحاديث التي تتحدث عن الخلافة والبيعة فيمكن أن تُحمل في جملتها في ضوء معطيات عصرنا الحاضر على ضرورة إقامة نظام حكم عادل رشيد له رئيس ومؤسسات ، يعمل على تحقيق العدل بين الناس ، وتحقيق مصالح البلاد والعباد ، ولا يمنع الناس من إقامة شعائر دينهم، ويستند إلى الشورى والإفادة من الكفاءات وأهل الخبرة والاختصاص ، بحيث لا يترك الناس فوضى لا سراة لهم ، ولا إشكال بعد ذلك في الأسماء والمسميات طالما أنها تحقق الأهداف والغايات التي يسعى الإسلام لتحقيقها بين الناس جميعا بما يحقق صالح دينهم ودنياهم .

* * *

فهرس الموضوعات



طبع بمطابع وزارة الأوقاف





يسر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف

أن يبدأ نشر سلسلته الفكرية « نحو تجديد الفكر الديني »

وأن يكون أول إصداراتها هو الجزء الأول من مجموعة مقالات

في الدين والحياة لمعالي وزير الأوقاف أ.د/ محمد مختار جمعة

تتناول جانباً من أهم القضايا الفكرية العصرية .

طبع بمطابع وزارة الأوقاف